هيئة كتابة التاريخ

سلسلة نوابغ الفكر العربي

طارق بن زياد

د . سوادي عبد محمد

Bibliotheca Alexandrina
0091322

طارق بن زياد

هيئة كتابة التاريخ

سلسلة نوابغ الفكر العربي

طارق بن زياد

حياته ـ ظهوره ـ نسبه ـ خططه العسكرية
ووقائعه في الأندلس والمغرب

د . سوادي عبد محمد

الطبعة الاولى ـ لسنة ١٩٨٨

الاهداء

الى ....

كل قائد ميداني مخطط في الجيش العراقي الباسل

الى ....

احفاد هذا القائد العملاق

للسير على دربه وخطاه في مضاء العزيمة

وقوة الارادة

المؤلف

مقدمة المؤلف

يحتل طارق بن زياد مكانته بين القادة التاريخين والعسكريين الستراتيجيين ، فقد نحت اسمه في السجل العالمي لابرز وثائق القرن الاول الهجري / الثامن الميلادي ، التي تتكلم على فنون الحرب وتنظيم العساكر وعلى فن القيادة وتعبئة القوى والعناصر .

ان هذا القائد الميداني الذي لا يشق له غبار ، قد نقل النور الى الجزء الجنوبي من أوربا ، وكاد ان يتوغل ليوقد فيه شعلتين متأججتين هما العروبة والاسلام لتنيرا العالم ليس فقط في القارتين القديمتين وانما سيتعدى سناهما الى أبعد الآفاق .

وليس أدل على جدارته التي لا تبارى وكفاءته في مضمار الخطط وحسم المواقف العسكرية ، من جوازه الى بلاد يفصلها « بحر شديد الأهوال » عن افريقية مع جنده ومعداته وتقدمه في مجاهلها ، واحرازه الانتصارات بطريقة يعجز المرء احياناً عن تصورها وتخليها في اطار الواقع الذي استوعب احداثها .

ولم تجانب الدقة ، اقوال المؤرخين والكتاب القدماء والمحدثين التي بنيت على اساس ، ان العمل الذي اضطلع به طارق بن زياد ، كان من الحواسم التاريخيـة ومنعطفاً رائـداً في التاريخ العـربي الاسـلامي ، حيث قدر لهذه البـلاد التي وطئتها قدماه ، ان تقوم بدور اساس في اشادة صرح متعال للحضارة العربية الاسـلامية ، كان له اعظم الأثر في تاريخ الفرنجة في عصر نهضتهم ، اذ لم تنشـأ أوربا ، الا ان تألقت بفضل هذا الصرح في القرون التالية ، فتحولت الى حياتها المدنية المزدهرة .

ومن هنا لم يكن هذا البحث ، استعراضاً لسيرة هذا القائـد ونسبه ونشأته وحياته الخاصة فحسب ، وانما هو ايضاً محاولـة لدراسة نشاطه في مجال التنظيم والخطط والموضوعات العسكرية ، دراسة تحليلية ونقدية للنصوص والحقائق التاريخية وللاراء التي جاء بها بعض المؤرخـين والكتاب المحدثين . لقـد شكلت هـذه الصفحات كتاباً يضم ثمانية فصول ، عني الفصل الأول منها بنشأته ونسبه وظهوره على مـسرح الاحداث في المغرب وتوليه امرة حامية طنجة ، وكذلك يتطرق الى ثقافته وملكاته في الادب والشعر . اما الفصل الثاني فيهتم بتقديم معلومات عن انصرافه منذ سـنة ٨٩هـ وهو في مقره في طنجـة لاعـداد الترتيبات اللازمة للقيام بعمـل عسكري هو الدخول الى الاندلس ، فكان يهيىء للعبور . ويقوم الفصل الثالث على تحليل شخصية طارق بن زياد كقائد عسكري متمرس ، ظهرت مواهبه وسطوته في وقائع المغرب العربي واحداثه منذ سنة ٨٥هـ ، كما تتوضح خطط طـارق بن زياد العسكرية في

الفصل الرابع ، حيث رسم اطاراً لهذه الخطط العامة منها والتفصيلية . اما الفصلان الخامس والسادس من هذا الكتاب ، فيتناولان موضوعين مهمين ، الاول يتعلق بالمخطبة التي نسبتها بعض المصادر اليه ، وفيه تحليلات للنصوص التي جاءت في هذا الصدد والثاني يتكلم عن عملية لها علاقة بالخطبة ، هي حرق السفن التي نسبت الى هذا الفاتح أيضاً ، وتضمن دراسة موضوعية دقيقة ومقارنة لهذا الموضوع . واستخدم الفصل السابع ، النصوص المتعلقة بالعمليات العسكرية ووقائع الفتح التي كرس لها طارق بن زياد جل نشاطه في بلاد الاندلس ، والمعارك التي خاضها منفرداً او مع موسى بن نصير . وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب ، تقرأ موضوعاً عن عودة طارق بن زياد مع قائده الاعلى موسى بن نصير الى دار الخلافة الأموية في دمشق للمثول امام الخليفة الوليد بن عبدالملك ، وذلك بعد مكوث الاول ما ينيف على العام في الديار الاندلسية معيناً وفاتحاً .

لقد اتجهت هذه الدراسة صوب العديد من المصادر والمراجع المعتمدة عن تاريخ المغرب والاندلس ، فاستعرضت المعلومات الواردة فيها ، غير ان بعضها لا يتطرق بشيء من التفصيل الى الموضوعات التي اهتم الكتاب بدراستها سوى اشارات قليلة جعلناها مرتكزاً لتحليلات تلقي بعض الضوء عليها .

ومن الجدير بالاشارة ان المصادر المفيدة حقاً للبحث هي التي تقدم لنا النصوص المتعلقة بالقرن الاول الهجري ، وللاسف فان هذه المصادر قليلة جداً والمعلومات التي اوردتها مقتضبة ، لذلك

فقد كان يقتضي علينا الرجوع الى مصادر القرون التالية ، لنستقي منها ما يفيدنا عن طارق بن زياد ، ولعل في مقدمة هذه المصادر الكتب التي صنفت عن فتح الاندلس وتاريخها مثل كتاب اخبار مجموعة في فتح الاندلس لمؤلف مجهول ، وتاريخ افتتاح الاندلس لابن القوطية القرطبي وفتوح مصر والمغرب والاندلس لابن عبدالحكم والامامة والسياسة ــ القسم الخاص بفتح الاندلس ــ المنسوب الى ابن قتيبة واعمال الاعلام لابن الخطيب ، وتاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، وبغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس للضبي ، والبيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب لابن عذاري ، وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي ، وجذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس للحميدي ، والذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام ، ووصف الاندلس لابي بكر احمد بن محمد الرازي ، والروض المعطار في خبر الاقطار للحميري ، ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي وآخرها كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقري ، اما الكتاب الاكثر اهمية من بين هذه المصادر التي عضدت البحث فهو كتاب « المقتبس » في اخبار بلد الاندلس لابي مروان بن حيان ، والنص الاندلسي لمؤلف مجهول الذي نشره ليفي بروفنسال ، والنص الاندلسي الآخر للوليد الباجي الذي نشره الدكتور دنلوب ، والثالث لابي مروان عبدالملك بن حبيب الذي نشره الدكتور محمود علي مكي في مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، والآخر الذي هو قطعة من ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى

جميع الممالك لابي العباس العذري الدلائي الذي حققه الدكتور عبدالعزيز الأهواني .

اما الدراسات الحديثة التي مست هذا الموضوع وتناولته من بعض اوجهه المعنية ، فقد تركت اثرها في التحليلات النقدية المقارنة في كثير من جوانبه ، وتسجل كتابات الاستاذ محمد عبدالله عنان في هذه الموضوعات وكتابه الموسوم « دولة الاسلام في الاندلس » خاصة ومؤلفات الدكتور حسين مؤنس وخصوصاً كتابه الموسوم « فجر الاندلس » ومؤلفات الدكتور السيد عبدالعزيز سالم وكتابه الذي اختص بـ « تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس » والدكتور احمد مختار العبادي في كتابه الموسوم « دراسات في تاريخ المغرب والاندلس » والاستاذ عبدالحميد العبادي في كتابه الموسوم « المجمل في تاريخ الاندلس » والدكتور لطفي عبدالبديع في كتابه الموسوم « الاسلام في اسبانيا » وكتابات بعض المستشرقين والكتاب والمؤرخين الغربيين وغيرهم كثيرون ، نقول ان هذه الكتب والدراسات تسجل معلومات مفيدة للبحث وتؤلف حزمة مضيئة للاهتداء الى آراء فيها الكثير من السداد عن فاتح الاندلس طارق بن زياد وجميع نشاطاته وعمله في بلاد المغرب والاندلس .

وهكذا تنتهي رحلة كتابنا عن سيرة اعظم قائد عربي انجبه الاسلام في الطرف الأقصى من المغرب العربي ، قدر له ان يلعب دوره الرائد والمجيد في التاريخ العربي الاسلامي ، وعملنا هذا انما هو محاولة لدراسته والكشف عن بعض حقائقه التي ضاعت في خضم احداث الربع الاخير من القرن الاول الهجري ، ولعل

محاولات أخرى سوف تعقبها تأخذ على عاتقها تقـديم المزيد من المعلومات عن حياته الاولى والديار التي نشأ فيها وترعرع وكذلك عن نهايته وعلاقته بالخلافة الأموية في دمشق .

واخيراً يمكن ان نصوغ قولنا على اساس ان عملنا لم ينجز الا من خلال الجهود التي يمكن ان يلمسها القارىء في عرض الحقائق التاريخية وفي التحليـلات والمقارنات ومتابعة النصوص وتوثيق المعلومات ، وحيال ذلك ، ارى من الواجب علي ايماناً مني برسالة الامة العربية المجيدة التي انجبت هذا القائد الفريد ، ان اقدم هذا البحث مساهمة متواضعة في تحقيق النداء الخير لاعادة كتابة تاريخ امتنا العربية والاسلامية بروح جديدة وبمنهج متميز خدمة للحقيقة والتاريخ الانساني .

طارق بن زياد

مقـــدمة :

لم ينته القرن الاول الهجري حتى استكملت الدولة العربيـة الاسلامية ، صورتها الجديدة التي طلعت بها على العالم ، لتضم في خارطتها السياسية كلا من مصر وبلاد المغرب والاندلس ، وترتسم هذه الملامح على صفحات التاريخ العالمي ويترسخ كيانها من الخليج العربي حتى المحيط الاطلسي •

لقد توجت المرحلة السابقة والأخيرة من انضمام المغرب العربي الى حوزة الدولة العربية الاسلامية بتولي القائد المعروف موسى بن نصير منذ سنة ٨٦هـ/٧٠٧م على افريقية ، حيث وطـد السـيادة العربية الاسلامية في ربوع هذه البلاد من حدود المغـرب الادنى ابتداء من برقة حتى طنجة ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت تظهر مواهب هذا القائد على مسرح هذه البلاد التي اصبحت تؤلف جزءاً لا يتجزأ من كيان الدولة العربية وتشكل اهمية كبيرة في تقـرير سياستهـا ونفوذها وتلعب دوراً مهماً في علاقاتها وتأثيراتها السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية •

ولعل اهم ما يسترعي الانتباه الحرص الذي اولاه موسى بن نصير للعنصر العربي في بلاد المغرب ، وعده دعامة الاسلام هناك وايلاؤه ما يستحقه من المنزلة والنفوذ ، فعهد الى قادة العرب خوض معارك مصيرية لتوطيد الاسلام ومثله ومبادئه وترك لهم هذه المهمة الخطيرة التي كان لها تأثيرها في مستقبل جميع بلاد المغرب من برقة وخليج سرت شرقاً حتى طنجة والمحيط الاطلسي غرباً ومن بلاد السودان جنوباً حتى بحر الروم (المتوسط) شمالا ، ويدخل فيها كذلك افريقيا الشمالية وتونس •

ولا يخامرنا شك في ان موسى بن نصير ، أنما يرجع احراز انتصاراته في توطيد سيادة الدولة العربية في بلاد المغرب ، الى تميزه القيادي وسياسته التي كانت تقوم على التوثيق بين العناصر والقوى السياسية في هذه البلاد واعتمادها في مهمات الجيش والدولة واكتشافه لاخلاص القبائل البربرية في اسنادها للحكم العربي وتوسيعه وارسائه على أسس وقواعد سليمة ، فقد قال عنهم : « انهم اشبه العجم بالعرب ، لقاء ونجدة وفروسية وسماحة وبادية »[١] ولذلك لم يكن ثمة ما يحول بينه وبين استكمال مهماته العسكرية سواء في المغرب او في الاندلس ، حتى وصلت طلائع جيشه الى ميناء طنجة[٢] التي يقول عنها صاحب كتاب اخبار مجموعة في فتح الاندلس : « بانها قصبة بلاد البربر وام قراهم »[٣] وهي تقع في اقصى الطرف الشمالي الغربي لافريقية وتتميز بموقع ستراتيجي ، وقد اعتصمت بالسيادة العربية فترك فيها موسى بن نصير حامية يقدرها المؤرخون باكثر من تسعة وعشرين الفاً وضع

على رأسها احد قواده وهو طارق بن زياد بن عبدالله[٤] الذي قدر له ان يبرر ثقة قائده الاعلى بكل ثبات القائد العسكري ومقدرته .

وبعد أن أتم القائدان فتح طنجة بدآ مناوراتهما للدخول الى سبتة وهي « رأس المداين على شط البحر »[٥] غير ان هذه المدينة كانت محصنة من البر والبحر وتختلف اليهـا المراكب والسفن من اسـبانيا « بالمعاش والامــداد »[٦] فاستعصت عليهما فعو لا على اجتثاث ما حولها من المدن والمواقع ، ومعروف ان هذه المهمة قـد عهدت الى طارق بن زياد ، الذي بقي يتحين الفـرص للانقضاض عليها[٧] ، وظل مقيماً مع جيشه الذي راح يزداد عدداً بما انضـم اليه من الجند وخاصة من قبائل برغواطة وغمارة ، على سواحل بحر الزقاق قريبـاً من طنجة ، وهو متأهب ويتلقى من قائـده الاعلى موسى بن نصير الأمر بالتصدي لتحركات القوى المعادية للجيوش العربية في منطقته ، فيما انصرف موسى بن نصير الى وضع الأسـس الكفيلة للاستقرار والامن في افريقية بالقضاء على كل ما من شأنه اثارة الاضطرابات والفوضى بوجه الحكم العربي هناك .

غير ان ما يستلفت الانتباه ، الدور الذي كان يقوم به طارق بن زياد في منطقة طنجة ، فقد اتجهت خططه نحو تحقيق هدفين ، الاول اسقاط حصن سبته[٨] واخضاعه ، وبذلك تستكمل بلاد المغـرب انضواءها تحت لواء الدولة العربية الاسلامية ، والهدف الثاني ، هو التطلع الى ميدان جديد لتوسيع نفوذ الدولة العربية بالجواز الى عالم آخر هو الاندلس عبر « الزقاق » المضيق الذي يفصل بـين

القارتين الافريقية والاوربية ، واشراك القوى التي راحت تتعاظم لديه في اعمال عسكرية تتطلبها مرحلته الراهنة .

والظاهر ان طارق بن زياد، كان بامكانه ان يحقق الهدف الأول ولكن تطور الأوضاع بما يشير الى خدمة غرضه الثاني ، جعله ينصرف كلياً الى وضع الخطط والترتيبات لنشاطه بهذا الاتجاه ، فأخذ يوظف الهدف الاول لخدمة اغراضه في الوصول الى شواطىء الأندلس ، وهكذا تمت اتصالاته ومراسلاته مع اصحاب سبته وعلى رأسهم « يوليان »(٩) حاكم اقليم مورطانية الطنجية ، الذي كانت له علاقات بملوك اسبانيا ، وهم القوط الغربيين من جهة ومع قائده موسى بن نصير من جهة أخرى .

وليس هنالك من شك في ان نية العرب المعقودة في الوصول الى الاندلس عبر المضيق ، وتكرار ذلك بأنهم سوف يجوزون بحر الزقاق الى بلاد أخرى ، لكي ينشروا فيها مبادىء الاسلام والتسامح ويضعوا اسساً للعدالة ، واتصالات موسى بن نصير بالخليفة الأموي في دمشق لاطلاعه على الخطة وذيوع ذلك في جميع العالم الاسلامي مشرقه ومغربه ، نقول ليس هناك شك في انها تقدم دليلا على ان وراء صياغة تلك الاحداث ، شخصية لعبت دوراً مهماً في التمهيد والاعداد لها، انها بكل اطمئنان شخصية طارق بن زياد وذلك على الرغم مما تشير اليها الروايات العربية بتركيزها على موسى بن نصير ، حيث ترجع اليه الفضل الاول في عبور الاسلام الى اوربا من المغرب وقيام دولة العرب هناك .

ومع اننا يجب ان لا تنتقص من دور موسى بن نصير في هـذا الأمر ولكن علينا في الوقت نفسه ان نشير الى دور طـارق بن زياد وتأكيد انه الرائد الاول لهذه الفكرة التي اصبحت واقعاً ملموساً في التاريخ العربي ، وانه الشخصية التي كانت وراء تطور الاحـداث باتجاه تحقيقهـا ، على الرغم من الصمت الذي تلوذ به المصـادر المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر عن التحقيق فيمن صنع هذه المأثرة الكبيرة في تاريخ الدولة العربية الاسلامية وذلك بمد رواق الاسلام في بلاد اصبحت تاجاً مضيئاً في تخت الحضارة العربية ، وليس هناك ثمة ما يحول دون ان نقطع بالقول لصالح القائد العربي طـارق بن زياد ولكن هنا ، يحق لنا ان نتسـاءل ، لماذا اغفلت هـذه المصادر ، دوره الرائد في التعبئة لهذه المحاولة التي اتسمت بالجرأة ورسـم الابعاد الحقيقية لاطارها السياسي والعسكري •

وليس ادل على هذا الدور التاريخي المتميز الذي قام باعبائه طارق بن زياد من اشارات المؤرخين المقتضبة في انصرافه لاستيعاب الفكرة التي طرحها مع قواده وجنده في حامية طنجة ، ومناقشتها في ضوء واقع بلاد الاندلس وجمعه للمعلومات عن هذه البلاد وما هي عليه من ضعف وكيف يمكن ان تحقق فيها السـيادة العربية وما تضمنه من عيون الثروة التي ستشكل موارد للدولة المنشودة هناك •

نخلص من هذا كله ــ اننا يجب ان نحدد ملامـح الاجابة عن التساؤل الذي ينبغي ان يطرح هنا حول طارق بن زياد وبـلاد الاندلس وموضوعاتهما في دراسة مستوعبة للنصوص والحقائـق التاريخية التي تسعفنا بها المصادر والمراجع وفي رحلة هذا الكتاب

سوف تتلمس الاثر ذا الطابع الأصيل الذي تركه هـذا القائد في التاريخ العربي في نهايات القرن الاول الهجري .

هوامش المقدمة :

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب (تحقيق ج.س. كولان ، طبعة بيروت ـ بدون تاريخ) جـ ٢ ص ٢١ .
(٢) وكان يحكمه قبل العرب أخيلا وهو من القوط الغربيين .
(٣) مجهول ، اخبار مجموعة (مجريط ـ ١٨٦٧) ص ٤ .
(٤) ابن عذاري ، المصدر السابق جـ ١ ص ٤٣ .
(٥) اخبار مجموعة ص ٤ .
(٦) م.ن. ص ٤ .
(٧) وهو جزء من الاقليم الذي كان يحكمه « يوليان » ويشكل مع طنجة البلاد المعروفة « مرطانية الطنجية » وكان في ذلك الحين تابعاً للدولة البيزنطية وكان يوليان يمثل حاكماً عاماً من قبل الامبراطور البيزنطي لكنه بعد ذلك اصبح حاكماً مستقلا (د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ط ١ ، القاهرة ـ ١٩٥٩) ص ٥٣ ـ ٥٤ .
(٨) أورد ابن الاثير ، تفصيلات مهمة عن المحاولتين اللتين قام بها الجيش العربي لاخضاع اقليم سبتة ، الاولى في عهد القائد العربي عقبة بن نافع والثانية قام بها القائدان موسى بن نصير وطارق بن زياد (اسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٤ ص ٤٢) ابن عبدالحكم ، فتوح افريقية والاندلس ص ٢٠٥ ، ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١٨٥ .
(٩) اختلفت المصادر حوله اختلافاً كبيراً فبعضها يزعم انه قوطي والآخر يقول انه رومي فيما يقرر البعض الآخر انه بربري من قبيلة غمارة (اخبار مجموعة ص ٤ ؛ ابن عبدالحكم ، فتوح افريقية والاندلس جـ ١ ص ٢٠٤ ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ١ ص ٢١١ ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٨٩ ؛ ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١٨٥ .

الفصل الاول

طارق بن زياد ، نشأته ، نسبه ، ظهوره

ولد طارق بن زياد في احدى مدن المغرب العربي ولعلها من مدن قبيلة نفزة خلال خمسينات القرن الاول الهجري وهو عهد القائد العربي عقبة بن نافع الفهري في بلاد المغرب ، الذي اختط مدينة القيروان سنة ٥٥هـ وربما كان طارق بن زياد يختلف الى هذه المدينة وهو ما يزال صبياً او كان يقيم فيها ، ويذكر ابن عذاري نقلاً عن صالح بن ابي صالح في نسبه قائلاً هو « طارق بن زياد بن عبدالله »[1] ، وان أباه زياداً قد أسلم ايام عقبة بن نافع وحسن اسلامه وخلفه ابنه هذا فدخل في خدمة ولاة العرب المسلمين[2] كما يذهب ابن خلدون في نسبته الى القول : انه « طارق بن زياد الليثي [3]» ولا نعلم فيما اذا كان ينحدر من بني الليث !! حيث ان هذا المؤرخ لا يقدم اية اسباب أو معلومات لهذه الكنية او اللقب .

ويتناول الاستاذ محمد عبدالله عنان هذا الموضوع ، ويصح قوله : انه ازاء هذا الغموض الذي يحيط بسيرة طارق بن زياد ، فليس في وسعنا ان نتحدث عن صفاته او ترجمته الشخصية[4]

ويعود الكاتب ليقول : ان طارق بن زياد تلقى الاسلام عن ابيه زياد عن جده عبدالله ، وهو اسم عربي اسلامي في نسبته ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال اسماء بربرية محضة حتى ينتهي الى نفزة[٥] .

ويتعرض بعض المؤرخين الى نسبه العربي ، فيشيرون الى انه كان عربياً من قبيلة صدف (او بأل التعريف) والصدف من القحطانية ، وقد حضر جماعة منهم فتح مصر مع عمرو بن العاص واختطوا بها ، ويقال الصدف هو ابن مالك بن مرلغ بن كندة من ملوك غسان »[٦] وعلى هذا الاساس ، فقد انتشر معظم هذه القبيلة وبطونها في مصر وبلاد المغرب ، حيث توجد قرية باسمهم « صدف » بالقرب من مدينة القيروان . وقبيلة صدف كذلك في كهلان اليمنية[٧] ، ومن المستبعد انه كان مولى لموسى بن نصير لان عقب طارق بن زياد في الاندلس كانوا ينكرون ولاء موسى بن نصير انكاراً شديدا وكذلك ينكرون ان أباه كان مولى لقبيلة صدف[٨] .

ويقرر الرازي برواية المقري ، ان طارق بن زياد كان « فارسياً همدانياً » حيث يذكر ان موسى بن نصير دعا مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبدالله فارسياً همدانيا[٩] ، وينقل عنه صاحب كتاب «اخبار مجموعة» على ما يبدو ، ان طارق بن زياد كان فارساً همدانيا[١٠] والظاهر ان هناك مصدراً واحدا نقل هؤلاء رواياتهم عنه قد اوقع غيره من المؤرخين في الوهم ، وذلك بتحريف العبارة « فارساً همدانياً » الى عبارة « فارسياً همذانياً » وخاصة

المؤرخ محمد بن موسى الرازي في كتابه « الرايات » كما جاء في كتاب « المقتبس » لابن حيان القرطبي ، ونقلها عنه كذلك المقري في نفح الطيب ، وهــذا التحريف ادى كذلك الى ان يقــع بعض المؤرخين وكتاب التاريخ في الوقت الحاضر في خطأ واضح فقرروا هذا النسب وهو يفتقر الى الســند التاريخي[١١] ومن الجــدير بالذكر ، ان المتأمل في كتاب اخبار مجموعة ، يقرأ عبارة « فارساً همدانياً » وليس « فارسياً همذانياً » في مكان آخر من الكتاب[١٢] .

وربما يتبين كذلك مماذكره المؤرخ ابن عبدالحكم ، وهو يرجع الى نسب طارق بن زياد في قوله : « طارق بن زياد بن عمرو » فان اباه « زياد بن عمرو » من « بني الصائد احدى بطون قبيلة همدان العربية حيث ينتسب اليها جده « ثمامة الصائدي » واسمه « زياد بن عمرو بن عريب بن حنظلــة بن دارم بن عبداللــه الصائدي »[١٣] ، ومعروف ان صدف وبني الصائد هــم من هَمْدان بن مالك بن زيد بن أوسله بن ربيعة بن الخيار بن مالــك بن زيد بن كهــلان ابن ســبأ[١٤] .

وطلع علينا ابن عذاري بنسب الى طارق بن زياد يرجعه فيه الى قبيلة نفزة[١٥] ، وذلك نقلاً عن صالح بن ابي صالح ، فنقلــه عنه الحميري[١٦] والادريسي[١٧] وابن خلدون[١٨] والمقري[١٩] فاصبح هذا النسب هو المرجح والموثوق لدى بعض المؤرخين والكتاب ، كما صار وكأنه جزء من الحقيقة التاريخية المعتمدة في هذا الصدد ، وقد ذهبوا الى انه من غير الممكن ان يتولى قائد عربي قيادة جيش كله من البربر ، ولكن ليس من شك في ان هذا الزعم لا يشكل سنداً

قوياً لآرائهم فمن غير المستغرب ان يعبىء قائد عربي جيشاً معظمه من البربر المسلمين ويقودهم كما هو الحال بالنسبة للقادة العرب في بلاد المغرب كما ان طارق بن زياد كان لا يعدم التفاهم مع قواده واذا لم تكن هناك مشكلات بهذا الخصوص فان ذلك لا يعني ان طارقاً كان غير عربي •

اما النص المشهور لمؤرخ الاندلس عبدالملك بن حبيب ، الذي اورده ونشره الدكتور محمود علي مكي القائل ان « طارقاً ، كان طويل القامة ضخم الهامة ، اشقر اللون »(٢٠) فلعله لا يعني ان تكون الصفات التي تضمنها صفات ينبغي ان تتوفر في البربر دون غيرهم ، كما ذهب الى ذلك العديد من الباحثين وكتاب التاريخ ، فربما نجد من بين ما يتحلى به العربي هذه الصفات ايضاً •

ويخيل الينا ، ان اشتراك طارق بن زياد وهو ما يزال بعد صغير السن في الجيش العربي الذي كان يقوده والي بلاد المغرب زهير بن قيس البلوي(٢١) ، حيث كان يحرص على ان يضم الى جيشه العناصر العربية الكفء والقادرة على تحدي البيزنطيين او بعض الافارقة ممن يعارضون الحكم العربي ، نقول ان اشتراك طارق بن زياد هذا يؤيد اتجاهه العربي واخلاصه للحكم العربي الاسلامي الذي ساهم في العمل على ترسيخه وتوطيده ، بل ان الظروف والملابسات التي كانت تجتازها الادارة العربية لافريقية والمغرب عموماً من الناحيتين العسكرية والسياسية ، تقتضي الاعتماد اساساً على القادة العرب الميدانيين من امثال طارق بن زياد ومجموعة القادة بأمرة موسى بن نصير ، كما ان لقاءه بموسى بن نصير وهو في

الثلاثين من عمره او نحوها وتوليته قيادة حاميـة طنجة يدلل على اخلاصه للسياسة التي كان يتبعها الولاة العرب في بلاد المغرب وذلك قبل توليه قيادة الجيش العربي الاسلامي لفتح بلاد الاندلس .

ويصح القول ، ان ظهور طارق بن زياد على مسرح الاحداث في المغرب وافريقية كان قبل ان تتوافر لموسى بن نصير فرصة الولاية لهذه البلاد بمدة تبلغ اكثر من عشر سنوات ، فقد تولى موسى بن نصير « افريقية » في بداية عام ٨٦هـ/٧٠٥م فيما هناك ما يشير الى ان طارق بن زياد كان قد تولى مناصب عسكرية في عهد والي المغرب القائد العربي زهير بن قيس البلوي ، حتى انه تولى « برقة » وتسمى اميراً عليها عندما استشهد هذا القائد سنة ٧٦هـ[٢٢] .

ومن المؤسف انه لا توجد لدينا معلومات وافية عن النشـاط السياسي والعسكري الذي كان يمارسه طارق بن زياد في بـلاد المغرب قبل ان تعهد اليه المهمة الكبرى في الدخول الى بلاد الأندلس، غير انه يمكن الى حد ما ان نفهم بعض جوانب هذا النشاط فيمـا ذكره عبيد الله بن صالح ، من ان موسى بن نصير عهد الى طارق بن زياد ، قيادة الكتائب البربرية من قبائل ، كتامة وزنامة وهوارة التي كانت عدتها آنئذ اثني عشر الف فارس وخصص لها سبعة عشر رجلاً من العرب ، يعلمونهم القرآن وشرائع الاسلام[٢٣] وهكذا اتيـح لطارق بن زياد ان يلعب دوراً مهماً ليس في قيادة العساكر المواليـة للحكم العربي في بلاد المغرب فحسب وانما في قيادة الجيوش العربية التي كانت تقوم بمهمتها في تكريس السلطة العربية في هذه البلاد ، فقد جاء انه اشترك مع موسى بن نصير في فتح بقية بـلاد المغرب والسيطرة على حصون المغرب الاقصى حتى المحيط الإطلسي[٢٤] .

ولدينا اشارة مفيدة اوردها ابن عبدالحكم[٢٥] حول اقامة طارق بن زياد في مدينة تلمسان مع زوجته « ام حكيم » وذلك على حدود طنجة الشرقية وقبل توليه امر هذه المدينة الأخيرة ، ولعل موسى بن نصير هو الذي عهد اليه بولايتها وامره باتباع سياسة حسن الجوار مع طنجة وسبته الى ان يتم التفرغ للدخول الى طنجة. غير ان هذه الاشارة لا تفصح عن مزيد من المعلومات عن حياة طارق بن زياد وعن زوجته او ما يتعلق بحياتهما الخاصة .

والظاهر ان طارق بن زياد لم يتول طنجة بعد افتتاحها مباشرة : فقد عهد موسى بن نصير بولايتها الى ابنه مروان ، الذي عزله بدوره، حيث لم تكن ظروف طنجة وملابساتها ملائمة بالنسبة لمروان ابن موسى بن نصير فلم يلبث ان انصرف عنها بعد ان « جهد هو واصحابه » تاركاً القيادة من بعده لطارق بن زياد[٢٦] .

ولعل كفاءة طارق بن زياد ودرايته التامة بالعناصر الصالحة في البربر وخاصة اولئك الذين اسلموا وحسن اسلامهم وتعاونوا مع الولاة العرب ، هي التي استرعت انتباه هؤلاء الولاة او موسى بن نصير فيما بعد الى الاعتماد على هذا القائد في مهمات قيادتهم او جلب غيرهم من القبائل الى حضيرة النفوذ العربي في هذه البلاد ، كما ان تخطي موسى بن نصير غيره من كبار القادة العرب الذين كانوا يتميزون بالقيادة المستنيرة مثل زرعة بن ابي مدرك[٢٧] وعيّاش ابن أخيل[٢٨] وطريف بن مالك[٢٩] والمغيرة بن ابي بردة وغيرهم كثيرون ممن تؤهلهم اعمالهم العسكرية الباهرة لتولي المنصب الخطير

الذي تولاه طارق بن زياد او حتى تقربه واخلاصه لموسى بن نصير فانه لا يقل عن هؤلاء القادة لديه غير انه فاقهم منزلة ومكانة .

وغني عن البيان ، ان الثقة التي اولاها موسى بن نصير للقائد طارق بن زياد واماته ، لم تأت نتيجة تفوق هذا الأخير ، بكونه قائداً عسكرياً ، سواء على نطاق التكتيك المحدود لبعض العمليات التي قادها أو اشترك فيها ، او لانه يمتلك قدرات تقوم عليها نظرة ستراتيجية لمستقبل بلاد المغرب او الاندلس ، وانما لاخلاصه غير المحدود للعروبة وللعقيدة الاسلامية النابعة من صفاء النية وعدم الطمع التي اكدتها تجارب سابقة وذلك على الرغم من صغر سنه عندما عهد اليه موسى بن نصير بتولي حامية تلمسان او طنجة او تسلمه منصب قائد الجيوش العابرة الى القارة الأوربية .

وليس من الآراء التي يمكن الاطمئنان اليها ، الاستنتاج الذي جاء عند بعض المؤرخين استناداً الى اشارة ابن عذاري ، اضطرار موسى بن نصير الى تولية طارق بن زياد والاعتماد عليه بسبب انشغاله في العمليات العسكرية ضد المشركين والوثنيين ومقاومتهم للجيوش العربية الاسلامية حيث يقول : « قد هربوا الى الغرب خوفاً من العرب فتبعهم حتى بلغ السوس الادنى وهو بلاد درعة »(٣٠) فلم يجد بداً من ان يولي على الذين اطاعوه ، طارقاً وولاه على طنجة . غير ان موسى بن نصير ، انما ولى طارق بن زياد بعد ان استوعب شخصيته وما انطوت عليها من براعة وشجاعة وبعد نظر ، وكان هنالك الكثير من القواد العرب يمكن ان يسند اليهم موسى بن نصير هذه المهمة في حالة اضطراره ، فضلاً عن اولاده

عبدالله ومروان وعبدالعزيز الذين تميزوا هم ايضاً بالشجاعة والمقدرة .

كما ان قصر المدة التي ظهر فيها طارق بن زياد ، كقائد في بلاد المغرب في عهد بعض الولاة واختياره لحكم طنجة سنة ٨٥هـ او بعد ذلك ببضع سنين ، لم يهيىء لنا ان نسمع عنه او عن اشتراكه في اي عمل عسكري قام به موسى بن نصير وذلك على كثرتها وتواترها ، ولو كان قديم عهد بالقيادة لسمعنا عنه قبل هذا التاريخ اخباراً وتفصيلات عن حياته ونشاطه وعلاقاته(٣١) .

اما اذا أردنا ان نتحدث عن ثقافة طارق بن زياد ومدى المامه ببعض العلوم السائدة في عصره او الادب او الشعر او غيرها ، فليس لدينا معلومات ذات غناء ، غير ان بعض المصادر ، نسبت اليه ابياتاً من الشعر ، اذا صحت فانها تدل على ملكة شعرية وثقافة في الادب واللغة وعلى اسلوبه في معالجة موضوع الجهاد والشجاعة والاخلاص لمبادىء العروبة والاسلام فقال :

ركبنا سفيناً بالمجاز مقيرا
عسى ان يكون الله منا قد اشترى
نفوساً واموالاً واهلا بجنة
اذا ما شتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا
اذا نحن ادركنا الذي كان أجدرا(٣٢)

كما ان الخطبة المشهورة التي قيل انه القاها في جنوده بعد ان نزل بهم في الاندلس ، لو صحت هي الأخرى فانها قطعة ادبية فريدة وتعد من اروع الخطب الحماسية واعظمها في الهاب المشاعر والحث على الجهاد بما تضمنته من معان سامية وتعبيرات ادبية رفيعة[٣٣] . كما يذكر ابن بشكوال ، ان طارق بن زياد كان « حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه »[٣٤] وهذا يشير من طرف خفي الى بعض الامكانيات في اللغة والادب والفصاحة .

ومهما يكن من أمر ، فان وصول طارق بن زياد الى هذه المنزلة الرفيعة في الجيش العربي والدولة العربية الاسلامية ، وتبوؤه قيادة اخطر المعارك العسكرية في التاريخ العربي ، لابد ان تكون له من الثقافة العامة والادب ومعرفة باصول بعض العلوم والمعارف فضلاً عن الثقافة العسكرية العملية ، وان ما نسب اليه قوله من شعر او أدب له اساس من الصحة ، ولم تبن هذه المعلومات على تكهنات او احتمالات واهية ، والغريب في الامر اننا لا نسمع في المصادر المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر ما يشير الى معرفة مفصلة عن اكتمال شخصية هذا القائد التاريخي فيما يتعلق باهتماماته الفكرية والعلمية والثقافية ، والظاهر انه حتى هذا الادب المذكور له ، تصمت عنه المصادر المشرقية[٣٥] وبذلك تستوي في هذا الصمت مع بعض المصادر الأندلسية[٣٦] .

ولا يمكن مجاراة الدكتور أحمد هيكل في رأيه وهو يعزو أسباب الشك بهذين النصين المنسوبين الى طارق بن زياد وهما الخطبة وابيات الشعر الى ان هذا القائد كان حديث عهد بالعربية ولا

يستطيع الخطابة والشعر بلغةهو حديث عهد بها والزعم ان عمر طارق بن زياد في الاسلام واتصاله بالعربية كان مدة وجيزة يستبعد معها ان يجيد لغة العرب اجادة تسمح له بنظم الشعر والقاء الخطب[٣٧] أمر لا يحمل على التصديق او حتى على الاعتقاد . ولكن في رأينا ان لحد الاسباب في الصمت الذي تلوذ به هذه المصادر ، او انما ذكر منها كان شحيحاً حول ثقافة طارق بن زياد وحياته الخاصة او ما يتعلق باخباره او اية معلومات عنه ، تكمن في قصر المدة التاريخية بين ظهوره في بلاد المغرب والاندلس كوالٍ وكقائد ، وسرعة تطور الاحداث خلال هذه المدة بحيث لم تتح له او لغيره الانصراف الى الادب او الشعر ، فقد وُلّي موسى بن نصير قيادة المغرب وولايته على الارجح كانت سنة ٨٩هـ ، ايام الخليفة الوليد بن عبدالملك ، ومن المعقول ان تكون هذه السنة هي بداية ارتباط طارق بن زياد بموسى بن نصير[٣٨] ، فاذا كان العبور الى الاندلس سنة ٩٢هـ فان ثلاث سنين او اكثر بقليل ، هي مدة قصيرة جداً وزاخرة بالاحداث الجسام ، ولم تكن تسمح بظهور ما يشير الى اسهام طارق بن زياد في أدب او شعر ، كما لا تدع مجالاً لمؤرخي عصره بالتقاط اخباره في خضم هذه الاحداث ، او ان ما كتب عنه كان قليلاً جداً في هذا المجال .

هوامش الفصل الاول

(١) البيان المغرب جـ ٢ ص ٥ـ٦ ؛ الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ص ٩ ؛ المقري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب جـ ١ ص ٢٣٨ .
(٢) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس (ط ١ ، القاهرة ـ ١٩٥٩) ص ٦٧ ـ ٦٨ .
(٣) العبر وديوان المبتدا والخبر جـ ٤ ص ١٨١ .
(٤) دولة الاسلام في الاندلس ص ٥٩ .
(٥) م.ن. ص ٤٠ .
(٦) محمد امين السويدي ، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب (المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر) ص ١٧ .
(٧) مجهول ، اخبار مجموعة ص ٢٦ ؛ الحميري ، الروض المعطار ص ٩ المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣٨ .
(٨) ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٦ ؛ اخبار مجموعة ص ٦ ؛ انظر : د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٦٧ .
(٩) نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٩ (همدان ، في بلاد فارس) .
(١٠) اخبار مجموعة ص ٦ .
(١١) ومنهم الاستاذ الدكتور حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٦٧ هامش رقم (٢) والاستاذ الدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٧١ ، المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٧١؛ الاستاذ محمد عبدالله عنان، دولة الاسلام في الاندلس ص ٤٠ ؛ الاستاذ الدكتور احمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ص ١٦ ، في تاريخ المغرب والاندلس ص ٥٥ ؛ فضلا عن بعض الكتاب الغربيين والمستشرقين الذين تناولوا الموضوع .
(١٢) اخبار مجموعة ص ٦ .
(١٣) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ص ٣٩٢ـ٣٩٥ ، ٤٧٥ـ٤٧٦ « ويورد من بني همدان ، بني قابض وبني وادعة وبني الخارق وغيرهم » .

(١٤) م.ن. ص ٤٧٦ .
(١٥) البيان المغرب جـ ٢ ص ٥ .
(١٦) الروض المعطار في خبر الاقطار ص ٩ .
(١٧) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (طبع رومه ، ص ١٧٩) .
(١٨) العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١١٧ .
(١٩) نفح الطيب جـ ١ ص ١١٩ .
(٢٠) مجلة الدراسات الاسلامية في مدريد ـ ١٩٥٧ ، ص ٢٢١ .
(٢١) للاستزادة عن مدة حكمه انظر : « د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٤١ ـ ٤٢ ؛ د . السيد عبدالعزيز سالم ، المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٣٠ ـ ٢٤٠ .
(٢٢) د . السيد عبدالعزيز سالم ، بحثه « طارق بن زياد » دائرة معارف الشعب / العدد ٦٧ ، مجلد ٢ ـ مصر ـ ١٩٥٩) ص ٢٣٧ .
(٢٣) نص عبيد الله بن صالح ، نشره الدكتور حسين مؤنس في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد ؛ المجلد الثاني ـ ١٩٥٤ ص ٢٤٤ .
(٢٤) د . السيد عبدالعزيز سالم ، المصدر السابق ص ٢٣٧ .
(٢٥) فتوح مصر وافريقية ص ٢٠٥ ؛ ثم انظر د . سعد زغلول عبدالحميد ، تاريخ المغرب العربي (دار المعارف ـ مصر) ص ٢١٩ .
(٢٦) م.ن. ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٤ .
(٢٧) انظر ترجمته في ابن الاثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٢ ص ٣٠١ .
(٢٨) انظر ترجمته في ابن الاثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٣ ص ١١٨ .
(٢٩) انظر تفصيلات عنه في ص (   ) من هذا الكتاب .
(٣٠) البيان المغرب جـ ١ ص ٤٢ .
(٣١) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٦٨ .
(٣٢) المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٤ .
(٣٣) د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٣٤) كما جاء في المقري ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٥ ثم انظر د . السيد عبدالعزيز سالم المصدر السابق ص ٧٨ .

(٣٥) كتب الفتوح والبلدان واهمها ، ابن عبدالحكم : فتوح مصر وافريقية . والبلاذري فتوح البلدان وغيرها .

(٣٦) المصادر التي اهتمت بافتتاح الاندلس .

(٣٧) الادب الاندلسي ص ٦٤ .

(٣٨) د . احمد هيكل ، المصدر السابق ص ٦٤ .

الفصل الثاني

طارق بن زياد يهيىء للعبور

انصرف طارق بن زياد سنة ٨٩هـ وهو في مقره في طنجة ، بعد الترتيبات اللازمة للقيام بعمل عسكري سيكون له اعظم الأثر في تاريخ الدولة العربية الاسلامية وسيضع الاساس المتين لحضارة عربية ، تترك تأثيراتها ليس في اوربا وانما في جميع انحاء العالم .

وليس صحيحاً ما يذهب اليه بعض المؤرخين والكتاب العرب والاجانب ، ان توجه طارق بن زياد الى هذا العمل كان لغرض اشغال القوى العظيمة التي كانت تحت يده بالفتح بغية صرفها عن احداث المغرب العربي ، وان من معه من الجند بدأوا يلفتون نظره نحو الاندلس[1] ، ولكن الواقع هو انه ادرك بثاقب بصيرته ، الأهمية التي كانت تنطوي عليها هذه البلاد عندما تستظل براية الدولة العربية وما ستقدمه للسيادة العربية من نفوذ وقوة وموارد .

ولعل الاتصالات التي كانت قد تمت بين طارق بن زياد ويوليان حاكم سبتة لم تحدث بمبادرة طارق بن زياد ، وانما نتيجة للظروف

التي لحاطت بحاكم سبته بتطويقه من قبل الجيوش العربية وعلاقاته السيئة مع لوذريق ملك الاندلس[٢] ، وعجز الدولة البيزنطية التي كانت تبسط سيطرتها ونفوذها على سبته ، عن حماية هذا الاقليم ، فوّلت سبته ومتوليها يوليان وجهها شطر اسبانيا القوطية[٣] ، ان ذلك جعله يجد في الاتصال بطارق بن زياد ، ليعرض عليه أمراً في غاية الأهمية ، مستهدفاً في الاقل استبعاد الاخطار المحتملة عنه وتوجيه القوة المحاصرة الى اعمال قد يمكن استثمارها في المستقبل لصالحه .

وبينما كان طارق بن زياد يرقب الفرص لتحقيق امنيته وترتيب اوضاعه لخدمة اغراضه ، اذ جاءته رسالة من الكونت يوليان يعرض فيها تسليم معقله وتقديم المعونات والشروع في الدخول في مفاوضات من اجل تنفيذ هذا المشروع الخطير[٣] .

وليس من شك في ان طارق بن زياد كان قد لعب دوراً كبيرا في الاتصال بيوليان ، بغية التمهيد للاجتماع بالقائد العام موسى بن نصير ، فذكرت بعض المصادر انهما اتصلا بالمراسلة فقد سلم يوليان رسالة الى طارق بن زياد وهذا الأخير أوصلها بدوره الى قائده ، كما ذهبت بعض المصادر الأخرى الى انهما اتصلا بالمقابلة الشخصية بعد تمهيد طارق بن زياد الى اللقاء بينهما وذلك بحضوره ، وقيل أيضاً انهما اجتمعا في سفينة بالبحر باقتراح طارق بن زياد نفسه[٤]

ومهما كان اختلاف الرواية في امر هذا الاتصال الذي جرى بين طارق بن زياد وموسى بن نصير من جهة وبين يوليان ورجاله من جهة أخرى ، فان الجانبين اجتمعا فعلاً ، وان يوليان دعى موسى بن

نصير للدخول الى الاندلس وكشف له عن عوراتها وهوّن عليه أمرها[٥] .

ويبدو ان الثقة العظيمة التي اولاها موسى بن نصير الى طارق ابن زياد لم تدفعه الى موقف متعجل ومتسرع حول الموضوع ، بل ناقش هذا الأمر معه بكل تفصيلاته وظهر الحماس لدى طارق بن زياد فاستجاب موسى بن نصير لدعوة الكونت يوليان واهتم بمشروعه اعظم اهتمام ، ومن المحتمل جداً ان يوليان اوقف طارق بن زياد على المشكلات التي كانت تعانيها اسبانيا في ظل حكم القوط الغربيين والخلافات والشقاق بين الحكام واهل البلاد او ما يسودها من الانحلال والضعف ، كما كرر على الارجح ذلك لموسى بن نصير فرأى ان الفوز ميسور محقق وان الانتصار سيكون حليف القائد الذي يعهد اليه بالمهمة الخطيرة .

ومن الجدير بالذكر ، ان المصادر العربية تذكر ان يوليان لم يكتف بالاتصال بطارق بن زياد ومخاطبته[٦] وعرض الأمر عليه ، بل عمد كما تزعم هذه المصادر الى موسى بن نصير في القيروان لغرض اقناعه بما ينطوي عليه فتح اسبانيا من الخير عليهم وعلى جندهم وعلى الدولة العربية الاسلامية . ولكننا لا نميل الى ما ذهبت اليه هذه المصادر ، بل نعتقد ان ما يصح قوله ، هو ان موسى بن نصير لم يبد ما يشير الى رفضه للفكرة التي عرضها طارق بن زياد عليه وتبناها الاثنان .وعزما على الاتصال بالخلافة في دمشق . ومن المحتمل ان المؤرخين يريدون القول ان يوليان استهدف صرف انظار العرب عن محاولاتهم القضاء على سبتة ومحاصرتهم المستمرة لها

فسعى الى حثهم على الدخول الى اسبانيا ، متناسين ان فكرة العبور الى الاندلس كانت قد اختمرت لدى طارق بن زياد قبل ان يتصل يوليان به ليعرض عليه الفكرة نفسها باطار آخر بمدة تتجاوز السنتين او اكثر وان طارق بن زياد نفسه قد خفف من ضغطه العسكري وحصاره المضروب على سبتة وبدأ يخطط مع قواده وجنده لمشروعه آنف الذكر .

والظاهر ان المصادر الغربية والقشتالية راحت تتهافت حول اكساب اتصالات يوليان وآل غيطشة بطارق بن زياد وبعدها بموسى بن نصير ، اهمية كبيرة في تاريخ دخول العرب المسلمين الى الاندلس وقيامها في ظل السيادة العربية ، فاخترعت الرواية الخيالية ، المتصلة بابنة يوليان « فلورندا » التي زعموا ان اباها ارسلها الى طليطلة للتأدب بآداب الملوك ، فوقعت موقعاً حسناً في عيني الملك لوذريق فاغتصبها ، واحتالت الفتاة على ابلاغ ابيها سراً بما أصابها فغضب يوليان وعزم على الانتقام ، ورأى ألا عقوبة له الا اذا أدخل عليه العرب فاتصل بطارق بن زياد(٧) ونقل ابن عبدالحكم صاحب اخبار مجموعة هذه الرواية وما شاع عنها في المصادر الغربية المتواترة ، حتى اوردوا عبارة زعموا انها جاءت على لسان يوليان موجهة الى طارق بن زياد قائلاً : « اني مدخلك الاندلس »(٨) ، ويبدو منها اذا صحت ان صاحب سبتة اعتزم التعاون معه على تحقيق هذا الأمر الى النهاية . ولسنا بحاجة الى القول ، ان هذه الرواية التي اخذ المؤرخون والكتاب والمستشرقون يؤكدون عليها الى حد التهافت انما كانوا يسعون بذلك الى التأكيد على قضية أخرى مرتبطة بها ، حيث عزوا سبب اقدام العرب على تحرير

الاندلس الى ابنة يوليان التي اطلقوا عليها La Cava وتعني بلغتهم « المرأة السيئة »[٩] فيما عدا « سافدرا » الذي شكك بصحتها وقال انه حتى في حالة قبولها كقصة في اطار الاسطورة ، فاننا لا نستطيع ان نجعلها سبباً في عبور العرب الى الاندلس ، لان ذلك على حد قوله يثير شيئاً من الاشمئزاز[١٠] .

ويبدو على اغلب الاحتمال ، ان ذكر المؤرخين العرب لهذه القصة بمن فيهم صاحب اخبار مجموعة والحميري وابن عذاري والادريسي وابن خلدون والمقري ، الذين دوّنوا تواريخهم في مدة متأخرة عن دخول طارق بن زياد الى الاندلس ، تقول ان ذلك كان بسبب نهاية طارق بن زياد التي شاع ذكرها في المصادر العربية والمنطوية على كثير من الغموض والابهام وموقف الخلافة الأموية القائم على الاجحاف من هذا القائد ، مما جعل المؤرخين المعاصرين لهذه الاحداث يصمتون عن ذكر الاسباب الحقيقية للفتح التي يشكل دور طارق بن زياد فيها ، أهمها ، فيدرج المتأخرون منهم الى اختراع القصص والمبررات لهذا الحدث ولعل منها قصة ابنة يوليان يوردونها في كتبهم وتآليفهم حين راحوا يطلقون العنان لخيالهم ويوجدون المبررات لدخول طارق بن زياد الذي هزّ العالمين الاسلامي والغربي واصبح الحديث عنه يشغل كثيراً من المنتديات وكذلك المؤلفات والمصنفات في تلك المدة .

أو ان الباحث ليحار ، الى من ينسب اختراع هذه القصة ؟ فلعلها تنسب الى المؤرخين الغربيين او اللاتين ، او هي من اختلاق القصاص وواضعي الاغاني الاسبان ومن بنات خيالهم . وبالتأكيد

فليس هناك اية موضوعية لدى اي مؤرخ او كاتب للتاريخ من الغربيين والمستشرقين ، يعلل دخول العرب ، الاندلس ، مستنداً الى هذه الحكاية المتهافتة وبهذه الطريقة التي تشوه تاريخ الحركات العسكرية العربية واهدافها ، بل التاريخ العربي عموماً •

ولا غرو ، فلا نحتاج نحن الآن لكي يكون تعليلنا موضوعياً ومنطقياً ومعقولاً لذلك الدخول الا الاستناد الى ما جاء عن تخطيط طارق بن زياد واتفاقه مع قائده موسى بن نصير على الخطط والترتيبات العسكرية وتصميمها في هذا الصدد ، فضلاً عن ان الدخول كان هو الأمر الوحيد المنتظر في تلك الظروف التي كانت تسود بلاد المغرب خلال ولاية موسى بن نصير ، حيث بدأ طارق بن زياد وجنده يتطلعون الى الجهاد والى توطيد سيادة الدولة العربية في بقاع جديدة ، نظرا لما كانوا يتمتعون به من بعد نظر ومعرفة عن بلاد الاندلس ، خفاياها وطرقها والسلوك اليها •

ويناقش الدكتور حسين مؤنس ، الرأي الذي جاء به سافدرا ، وهو ان لقاء يوليان بطارق بن زياد ومن ثم بموسى بن نصير ، كان تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع ابناء غيطشة وانصاره ، فيقول انه لا يمكن ذكر ذلك بصيغة التأكيد لان المصادر جميعاً تختلف حول هذه المسألة اختلافاً شديداً ولا تتضح الحقيقة فيها الا اذا درسنا من جديد العبارات القليلة التي وردت عن الاحوال في طليطلة وماأدى الى تشريد نبلاء القوط وهجرتهم هو اقدام لوذريق على قتل غيطشة ، والظاهر ان نبلاء القوط هؤلاء هم ابناء غيطشة واخوته ووصل بعضهم الى المغرب والتجأوا الى يوليان ، وهناك على ما يذكر المؤرخون اقنعوا

يوليان بالاتصال بطارق بن زياد وطلبوا منه العون في القضاء على لوذريق ، ثم وضعوا أنفسهم تحت تصرف العرب لتسهيل هذا الأمر وتهوينه[١١] .

وتشير المصادر العربية الى ان آل غيطشة تحالفوا مع العرب ، بعد ان اجروا التفاهم مع طارق بن زياد ،غير انها تبالغ حينما تذكر انهم اشتركوا مع جيشه وكان لهم تأثير كبير واتفقوا على ان يخونوا لوذريق في اللحظة الحاسمة وذلك عندما تحين المعركة الفاصلة مع العرب[١٢] ، والصحيح ان طارق بن زياد استخدم بعضهم كأدلاء لقطعاته وهي تخترق هذه البلاد ، ويبدو ان مبالغة هذه المصادر جاءت انسجاماً مع ما درجت عليه في ايراد التفصيلات عن جميع ما زعمته من مساعدات يوليان وآل غيطشة للعرب في الدخول الى الاندلس .

ولا يشك الدكتور السيد عبدالعزيز سالم في ان يوليان هو الذي سعى عند طارق بن زياد لفتح هذه البلاد ، وانه ذلل له كل الصعوبات وهو الذي ضمن للعرب انحياز انصار غيطشة اليهم ، وهو ما حدث بالفعل عند افتتاح الاندلس ، فقد مالأ آل غيطشة العرب ودبروا الغدر بلوذريق واتفقوا على خذله في المعركة الحاسمة، ويدل على ذلك انالعرب كافأوهم برد جزءكبير من ضياع غيطشة[١٣] لهم [١٤] اما الدكتور حسين مؤنس فيؤكد استناداً الى المصادر العربية ، ان آل غيطشة مالأوا العرب من اول الأمر وانهم دبروا الغدر بلوذريق عندما حانت الفرصة ، وبهذا أدركوا ثأرهم منه واستعادوا ما ضاع منهم ، لان العرب وان كانوا لم يعيدوا الأمر الى بيت غيطشة الا انهم « امضوا لابناء غيطشة ضياع أبيهم »[١٥]

ويظهر للاستاذ محمد عبدالله عنان ، ان يوليان وحلفـاءه من آل غيطشة لم يقصدوا بدعـوة موسى ان يمتلك العـرب اسبانيا وان يحكموها ، بل كان مشروعهم ان يستعينوا بالعـرب على محاربة المغتصب واسقاطه واستخلاص الملك لانفسهم(١٦) ، ويورد هـذا الكاتب رأياً لانعلم من اين استخلصه؟ ولا كيف يستطيع ان يوثقه ؟ بقوله : ان موسى بن نصير يختلف عن طارق بن زياد ، انه كان من جانبه يؤكد ليوليان انه لا يقصد بالدخول الى الاندلـس سوى الغنائم ، وانه لا ينوي انشاء دولة عربية مسلمة وراء البحر(١٧) .

ويمكن القول ، ان جميع المؤرخين الغربيين والعرب ممن تصدوا لهذا الموضوع بالذات ، اعتمدوا بشكل او بآخر على ابن القوطية القرطبي في كتابه « تاريخ افتتاح الاندلس » وعلى من نقـل عنه مثل كتاب ابن عبدالحكم وعلى كتاب المؤرخ المجهول « اخبـار مجموعة في فتح الاندلس» وغيرهم من المتأخرين، ان هذا المؤرخ لا يمكن الاطمئنان اليه فيما يسوقه في موضوع المساعدات الاسبانية للعرب والاتصال بطارق بن زياد بهذا الصدد وذلك بسبب ان هذه المعلومات تتفق وميوله كاسباني ينسب الى القوط الغربيين لامـه فيحاول جهد امكانه ان يسبغ على الفتح العربي للاندلس وتوطيد السيادة العربية الاسلامية فيه وظهور الحضارة العربية التي كان لها تأثيرها في العالم ، هالة من قـدرة العنصر الاسـباني على تخطي العقبات التي اعترضت العرب لتحقيق هذا العمل العسكري ، ويقلل من الانبهار التاريخي فيقدرة القادة العرب العسكريين وفيمقدمتهم طارق بن زياد ، صاحب هذه المأثرة التاريخية ، لذلك انبرى كثير من

المؤرخين الغربيين للتأكيد على كلامه في موضوع له من الخطورة ما يجعلنا تنفي كذلك ما توصلوا اليه من استنتاجات وتحليلات في هذا الموضوع .

ومن المفيد للتعريف بالجهود الدبلوماسية التي اضطلع بها طارق بن زياد في التمهيد لمشروعه الذي استأثر باهتمام التاريخ العالمي ، وفي جانب الاتصالات التي أجراها مع يوليان ، فقد أظهر كفاءته في جعل يوليان يسعى بنفسه للاتصال به(١٨) ، ومع اننا لا نملك معلومات مفصلة عن ذلك ، ولكن يمكننا الى حد ما ان نلقي بعض الضوء على حقائق الاتصالات التي تمت بمبادرة يوليان وتطويرها من قبل طارق بن زياد الى الحد الذي يمكنه فيها خدمة اهدافه الاستراتيجية في اجتياز الزقاق الى الاندلس . والواقع ان مجاورة طنجة التي اقام فيها طارق بن زياد مع جيوشه ، لسبتة ، فرضت على هذا الأخير الترصد لتحركات يوليان ، فكانت العيون مبثوثة في كل مكان والاخبار تأتيه أولاً بأول ، وقد علم يوليان ، انطارق بن زياد قد استحوذت عليه فكرةالعبور الى الاندلس، فهو يمهد لها بزيادة الضغوط على سبتة لكي يصفي جهة المغرب ليسهل عليه الاتجاه نحو هذه البلاد التي تقع عبر البحر ، ولذلك فان يوليان بذل محاولاته لايقاف طارق بن زياد على نواياه تجاه العرب وان سبتة لن تقف عقبة في تحقيق الاهداف المعقودة على آمالهم ، فأرسل الى طارق بن زياد يعرض عليه موقفه ويرجوه ان يرسم له خطة في مساعدته تتناسب وامكانياته عندئذ بادر طارق بن زياد الى الاتصال بموسى بن نصير يخبره بالأمر وانه عوّل على ان يتخذ من اعوان يوليان وآل غيطشة ادلاء لجيشه في بلاد الاندلس يدلونهم على

المسالك والطرق نحو المدن والمراكز، وعلى الرغم من ان هذه المعلومات لم تأت صراحة في المصادر المتوفرة لدينا ، ولكنها جاءت ضمناً في اغلب النصوص التي اوردها المؤرخون العرب[١٩] في هذا الموضوع •

ويذهب الدكتور حسين مؤنس الى القول ، ان طارق بن زياد حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع فاكتفى بعودة صاحبها ، وكان طارق رجلاً سياسياً ، بعيد النظر ، فلعله صادق يوليان ليستعين به على اخضاع من تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون[٢٠]، ويبدو على اقرب الاحتمال ان هذا الباحث اعتمد على دراستين قدمهما كل من دوزي وسافدرا حول هذا الموضوع حيث اعتمدا بشكل رئيس على ما جاء في اخبار مجموعة،من ان يوليان اعتمد اعداداً كبيرة من البربر في جيشه ومملكته كذلك يمكن الاستنتاج مما جاء به ابن عبدالحكم « فراسل طارق يوليان ولاطفه حتى تهاديا »[٢١] ان طارق بن زياد احتمل الى ما يفيده كثيراً من جراء عقد اواصر العلاقات مع يوليان ، فان هذا الاخير رجل قادر فاجتهد في كسب وده ، ولا يعقل ان يكون طارق ابن زياد قد لاطفه ليتقي شره ، بل ليفيد منه فيما هو اهم من سبتة ، ويمضي الباحث الى القول ، انه ربما جاز لنا ان نستنتج من ذلك ان انظار طارق بن زياد كانت متجهة نحو الاندلس وانه اجتهد في كسب ود يوليان ليفيد منه في تحقيق امنيته هذه[٢٢] •

ومن الجدير بالاشارة ، ان تعاون يوليان وآل غيطشة مع العرب، هي فكرة خالصة لطارق بن زياد عرضها على قائده موسى بن نصير،

ولم يكن هذا الأخير بوسعه ان يرفضها او ان يشـــكك فيها ، لان طارق بن زياد قد استوعبها وخبر ابعادها في الحاضر والمستقبل . وكان موسى بن نصير يدرك ذلك جيداً ، فقد ترك له حرية التصرف في كل ما يتعلق بأمر الدخول عسكرياً الى الاندلس والخطوات التي يتخذها بهذا الشأن ، ولم تكن فكرة التعاون مع يوليان وآل غيطشة الا جزءاً يسيراً من هذه الخطط التي وضعهـا . وليس هناك صحة البتة في القول ان عروض يوليان في مساعداته لموسى بن نصير كانت تتماشى مع طباع هذا القائد الميـال للفتوح والغزوات[٢٣] وان المعوقات والصعـاب التي كانت تلوح امام موسى بن نصـير في الدخول الى الاندلس جعلته ينصرف الى القيروان[٢٤] ثم يعهـد بالمهمة الى طارق بن زياد بل الأمر كان ينطوي على خطة في نشـر السيادة العربية في المغرب والاندلس والعمل على تطبيقها وكان امر الدخول الى الاندلس موكول الى طـارق بن زياد فيما انصـرف موسى بن نصير الى قيادة جيوشـه في المغـرب لاستكمال النفوذ العربي فيها وتوطيده .

والظاهر ان مساعدة يوليان وآل غيطشة لطارق بن زياد وللجيش العربي الداخل الى الاندلس في الاستدلال على طرق هذه البـلاد ومسالكها واحوالها ، قد قدمت صورة عن تعاونهم مع طـارق بن زياد وبرهنت على صـدق نواياهم تجاهه واصبحوا من اخلـص الانصار للعرب هناك . بل لم يلبث بعضهم ان اسلم وحسن اسلامه. ويقرر الدكتور حسين مؤنس ان اولاد غيطشة لم يحرضوا العرب على فتح الاندلس ، بل انتظروا حتى تمَّ انتصارهم فانضموا اليهم وجعلوا انفسهم أدلة للمسلمين على عورات الاندلس ، والغالب انهم

حسبوا انهم يستطيعون الاستعانة بالعرب على ادراك ثأرهم من قاتل أبيهم ، لانهم على حد قوله ، كانوا يظنون ان العرب اذا اقبلوا الى الاندلس لم يلبثوا ان ينصرفوا عنها لانهم لا يطلبون من فتوحهم غير الغنيمة(٢٥) ، ولكن العرب خيبوا ظنونهم وهبطوا الى البلاد بقوة كبيرة وظهروا انهم ماضون في فتح البلاد بنية ادخالها في حوزة الدولة العربية ، فلما استبان ابناء غيطشة ذلك تقدموا الى العرب يطلبون الامان مع من تقدم واكرمهم العرب وردّوا عليهم شيئاً من املاك ابيهم(٣٦) .

ومعروف ، ان انخراط رجال يوليان وآل غيطشة في خدمة جيش طارق بن زياد قد تم خلال تعبئة هذا الجيش وتحضيرات قائده وجعله على أهبة الاستعداد للدخول الى الاندلس ولم يتم استخدامهم بعد ان دخل طارق بن زياد بجيشه كما اشار الى ذلك بعض الباحثين ، فقد ذهبوا الى ان اولاد غيطشة سارعوا مع اتباعهم فتركوا صفوف القوط وانضموا للعرب في اللحظة الحاسمة(٣٧) .

وازاء الاضطراب الذي تميزت به الروايات العربية حول المساعدات التي قدمها يوليان وآل غيطشة الى طارق بن زياد واختلافات المؤرخين والكتاب المعاصرين ، تساءل فيما اذا كانت هذه المساعدات حاسمة أو غير ذلك ؟ والواقع ان اغلب هذه التساؤلات لاتجد لها اجابة مقنعة وخاصة فيما يتعلق بنفي المساعدة واستدعاء العرب الى الاندلس في الوقت الذي لم تكن اقدامهم قد ثبتت في بلاد المغرب الأقصى ، وما الذي شجع طارق بن زياد وموسى بن نصير على القيام بهذا العمل الذي اكتسب صفة « المغامرة الكبرى » التي كان من الممكن ان تجر عليهم هزائم وخسائر كبيرة

والخروج الى هذه البلاد الواسعة الارجاء في قوة قليلة لا تزيد على السبعة آلاف ، وهم يعرفون ان المغرب ـ وهي اضعف من اسبانيا بكثير ـ لم يتم تحريره الا بجيوش كان قد بلغ أقلها اضعاف هذه الآلاف السبعة التي سار فيها طارق بن زياد(٢٨) .

وتعزو بعض الابحاث الحديثة طلب العرب للغنيمة من دخولهم الاندلس والعودة الى افريقية ، لما درج عليه اغلبية المؤرخين في ان العرب لم يكونوا يفكرون في فتح الاندلس فتحاً كاملاً والاستقرار فيه اول الأمر ، غير ان حملتهم العسكرية اخذت طابعاً آخر بعد انتصار طارق بن زياد الحاسم الذي لم يكن منتظراً ، بل ان خروج طارق بن زياد بهذا العدد القليل ، لايدل على حد زعمهم انه كان ينوي فتح هذه البلاد وجعلها جزءاً من كيان الدولة العربية الاسلامية ، وانما هو مجرد الاستطلاع ويستدلون على ذلك بما جرى عليه العرب في تحرير مصر والمغرب حيث كان التقديم للفتوح بقوة صغيرة تعقبها الامدادات ، وهو اسلوب العرب في الفتح(٢٩) ، وربما يكون ذلك صحيحاً فيما يتعلق بالبلاد التي فتحها العرب ونشروا فيها الاسلام سواء في المشرق او في المغرب ولكن بالنسبة الى بلاد الاندلس ، فان الأمر يختلف في جوهر الخطط التي وضعها القادة العسكريون العرب وخاصة طارق بن زياد حيث ان هذا العمل العسكري الكبير الذي تطلب تعبئة وتحشيداً واستنفاراً وخوض البحر وقطع مسافات شاسعة في بلاد بعيدة ومترامية الاطراف ، لا يمكن باي حال من الاحوال ان يكون مجرد استطلاع لهذه البلاد ومعرفة أحوالها والاستفادة من مواردها ثم وضع اليد عليها وفتحها بعد وصول المدد من العساكر والجيوش .

ومن الآراء المتناقضة التي لا يمكن التسليم بها ما جاء بهـا الدكتور حسين مؤنس ، فبينما هو يميل الى تصديق ما ذهب اليه اغلبية المؤرخين من ان العرب لم يفكروا في فتح الاندلس فتحاً كاملاً والاستقرار فيه بقوله « وربما بدا هذا الرأي صحيحاً لاول وهلة » يؤكد في مكان آخر من كتابه ، ان العمل العسكري لطارق بن زياد في بلاد الاندلس كان يستهدف تحرير هذه البلاد تحريراً كاملاً ، فقد سار قدماً من مدينة الى أخرى حتى انتهى الى طليطلة ، ولو كان يرجو مجرد الغارة والغنائم لعاد بعد ان وقعت في يده مدينـة او مدينتان وامتلأت يداه وايدي اصحابه من الغنيمة(٣٠) .

اما الاتصال الذي اجراه موسى بن نصير بالخليفـة الأموي الوليد بن عبدالملك فيما يتعلق بتقدم الجيوش العربية الاسـلامية نحو الاندلس ، فمن المعتقد ان لطارق بن زياد دوراً في اتخاذ هذا الاجراء الخطير ، وربما سعى الى ذلك لغرض تعزيز مكانة قائـده الاعلى لدى الخليفة والايحاء بان لمثل هذا القرار نتائج بالغة الأهمية لتأجيج حماسة جنده الذين لا تعوزهم عوامل الطـاعة والانضباط للتحرك وتحقيق الاهداف المرسومة ، وكذلك لاظهاره بكونه من اجراءات الخلافة الرفيعـة المستوى امام آل غيطشـة ورجالهـم وأنصارهم وممن انحاز من الأسبان الى جانب العرب .

ويمكن ان نستدل على هذا الدور من المثل الاعلى الذي كان يضربه طارق بن زياد كعسكري محنك في الطاعة لقائـده الاعلى وتطبيقه لأوامره واجراءاته ، فيشير صاحب اخبار مجموعة الى ان اولاد غيطشة وبعض رجالهم تساءلوا امام طارق بن زياد فيما اذا

كان هو « امير نفســه » فقالوا له : « هل انت امير نفسـك ، ام على رأسك أمير ؟ » فأجابهم بما يشير الى ذلك مؤكداً ، انه دائم الاتصال بقائده الاعلى يأتمر بأوامره وهذا القائد يتصل برئيســه الأعلى فيستهدي بآرائه ، فقال : « بل على رأسي امير وعلى الأمير أمير »[٣١] .

لقد جاء في كتاب اخبار مجموعة ونقـل عنه بعض المؤرخيـن المغاربة منهم والمشارقة ، ان رسالة طـارق بن زياد الى موسى بن نصير كانت تتضمن ما يشير الى اطلاع السلطة المركزية المتمثلة بمقام الخليفة في دمشق على أمر « الفتح الجديد » الذي كان يستهدف أوربا في اقصى الشمال الغربي وعبر البحر فكتب موسى بن نصير الى الخليفة الوليد بن عبدالملك يخبره بالأمر ، فرد عليه الخليفـة « ان خضها بالسرايا حتى تختبرها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال »[٣٢] ويبدو انه قد شاع في تلك المدة ما يفصل افريقيـة عن بلاد الفرنجة من بحر شاسع هو بحـر الروم (البحر المتوسط) الذي وان يكن العرب قد خاضوا فيه معارك عدة مع البيزنطيين ، لكنه بالتأكيد يتطلب المزيد من القدرة العسكرية البحرية ، الأمـر الذي جعل الخليفة يحذر من التغرير بالجند والمقاتلـة في عمليـة عسكرية عبر هذا البحر الشديد المصاعب .

والظاهر ان تقدير الخليفة للموقف وامره لانجاز هـذه المهمة بحذر وترو قد تناهى الى طارق بن زياد الذي استحث موسى بن نصير بدوره مرة أخرى لتنوير الخليفة بحقيقة البحر الذي ستخوضه الجيوش ، وهي تتقـدم نحو اوربا بانه زقاق ضيق يمكن تجاوزه

بسهولة ويسر ، فكتب موسى بن نصير الى الخليفـــة يعلمه : « انه ليس ببحر وانما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر »(٣٣) ولكن الخليفة اعرب عن ارتقائه الى عظم مسؤوليته وشعوره التام بمهمته التاريخية لما يترتب عليها من تبعات ومخاطر على حياة المقاتلة ، فيكرر بشيء من التأكيد قائلاً : « وان كان !! فاختبره بالسرايا »(٣٤) .

ويحلل المؤرخون المحدثون ، اطلاع موسى بن نصير الخليفـــة الوليد بن عبدالملك والتزود برأيه حول امر الاندلس وذلك بدون التأكيد على دور طارق بن زياد ، وهو ما يســترعي الاهتمام ، اذ ليس من الصواب ان نقطع به دون ان نفهم دوافعه الحقيقية فيقرر الدكتور حسين مؤنس ، ان اتصال موسى بن نصير بالخليفة ، لم يكن بوحي من طـــارق بن زياد ، وهو وان لم يتطرق الى ذلك فانه يستبعد هذه الفكرة اساساً ، فقد استند الى كتاب اخبار مجموعة من ان « موسى بن نصير كتب الى الوليد يخبره بدعوة يوليان اياه لفتح الاندلس »(٣٥) ويذهب الدكتور السيد عبدالعزيز سالم الى القول ، انه على الرغم من تلهف موســـى بن نصـــير على افتتـــاح الاندلس لم يشأ أن يقحم المسلمين في مغامرة لا يعلم نتائجها الا الله ؛ فلم يكن قد وثق بيوليان بعد ، ثم انه كان لا يمكن ان يتصرف في هذا المشروع الخطير وحده دون ان يستأذن الخليفة او يستشيره فيما هو مقبل عليه ، غير ان هذا الباحث يأتي بجديد حينما يقول : « فكتب من فوره الى الخليفة الوليد بن عبدالملك بفتوحه في المغرب وضمـــن رســـالته مـــا ذكـــره يوليـــان بشـــأن الدخـــول الى بلاد الاندلس(٣٦) » وعلى هذا الأساس يتبادر الى الذهن ان اطلاع

موسى بن نصير الخليفة الوليد بن عبدالملك على هذا المشروع قد جاء بصورة عرضية في رسالته الى الخليفة المتضمنة تقدم الجيوش العربية في بلاد المغرب وانتصاراتها هناك ، ولم تكن رسالة خاصة بالاندلس ، مما يساعدنا على فهم ان هذا الباحث يستبعد هو الآخر ان يكون طارق بن زياد وراء حث موسى بن نصير للاتصال بالخليفة واستئذانه القيام بالعمليات العسكرية في هذه البلاد .

اما الاستاذ محمد عبدالله عنان فيردد الافكار نفسها فيما يتعلق باستشارة موسى بن نصير للخليفة الوليد بن عبدالملك بأمر هذا المشروع ، ولكن هذا الباحث يؤكد في فحوى الرسالة على جانب مهم مما انطوت عليه بشأن مساعدة يوليان وآل غيطشة وتقديم السفن والمعاونة بالجند والارشاد ، الأمر الذي سيجعل الفوز ميسوراً محققاً[٣٧] وبذلك لا نجد اية علاقة لطارق بن زياد في هذه الرسالة ، بل ان موسى بن نصير كان قد تصرف في هذا الأمر بعيداً عن القائد الذي خاض غمار العمليات العسكرية في بلاد الاندلس ووطد النصر فيها للجيوش العربية الاسلامية .

ويجمع المؤرخون الغربيون والمستشرقون على خص موسى بن نصير بفكرة مراسلة الخلافة الأموية في بلاد الشام بشأن دخول العرب المسلمين الى الاندلس ، وعدم التطرق الى دور طارق بن زياد او حتى التفكير فيما اذا كان له دور في هذا الأمر ، ويبدو على اقوى الاحتمالات ، ان صمت المصادر الاولية فيما يتعلق بذلك ، جعل هؤلاء الكتاب والمؤرخين يصرفون الاهتمام عن البحث عن حقائق في هذا الجانب او حتى مجرد التفكير فيه .

وباعتقادنا ان هذا الأمر له اهمية كبيرة حيث يشير الى الرائد الذي انبثقت منه اول فكرة لحمل اللواء في هذه البلاد التي قدر لها ان تصبح جزءاً من الدولة العربية الاسلامية وقامت بدورها المعروف في تاريخ الحضارة العربية والانسانية ، مما يحدونا الى الاشادة بالدور المتميز الذي كان قد لعبه طارق بن زياد في توجيه المسار التاريخي لدولة العرب المسلمين ، وبذلك يكون هو بلا شك « الأداة التاريخية » لتنفيذ متطلبات حيازة الاندلس الى جانب الاسلام وانتصار الجيوش العربية الاسلامية فيها ، على الرغم من ان العرب ابتداءً من الخليفة الأموي والقادة العسكريين بمن فيهم موسى بن نصير وانتهاءً بأصغر مقاتل وجندي في بلاد المشرق او في المغرب ، لم يدر بخلدهم يوماً ان تجوز الجيوش العربية الاسلامية بتلك الخطط العسكرية البارعة الى هذه البلاد ويتم تسويتها لصالح النفوذ العربي الاسلامي .

وتعلل بعض المصادر، تردد موسى بن نصير فيما عرضه عليه طارق بن زياد بالاتصال بالخليفة في دمشق هو انه لم يكن واثقاً تمام الثقة بيوليان حاكم سبتة في ان يكون عوناً للعرب في دخولهم الى الاندلس وذلك على الرغم من استثارة يوليان على حد زعم المصادر للدخول فيها لما تتضمنه من « اسباب المنافع وانواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وثرارة المياه وعذوبتها »[٣٨] حتى انه طلب ان يقود هو بنفسه حملة استطلاعية ، يشترك فيها بعض رجال العرب المسلمين ، وكلفه موسى بن نصير « بمكاشفة اهل ملته من الاندلس المشركين والاستخراج اليهم وشن الغارة فيها ، ففعل يوليان ذلك »[٣٩] .

ويفهم من اشارة ابن عبدالحكم ، ان طارق بن زياد ، هو الذي طلب من يوليان ، القيام بالحملة الاستطلاعية في جنوبي الاندلس ليستوثقه امام موسى بن نصير فقال طارق ليوليان : « لا اطمئن اليك حتى تبعث الي برهينة »(٤٠) وعلى الرغم من اننا نؤيد ابن عبدالحكم فيما ذهب اليه ، ولكننا نشكك في طبيعة الرهينة التي ارسلها يوليان الى طارق بن زياد، اذ المهم في الأمر انه يمكن ان نفهم من عبارة طارق بن زياد الموجهة الى يوليان ، ان الاول طلب اليه ان يبرهن له عن حسن نواياه بقيادة سرّية ليستوثق من عدائه للوذريق حاكم اسبانيا ، ويدل على صحة استنتاجنا ، الاشارة الثانية التي اوردها ابن عبدالحكم التي اكد فيها العلاقات الوطيدة والصداقة التي كانت تربط طارق بن زياد بيوليان حيث : «راسل طارق يوليان ولاطفه حتى تهاديا »(٤١) .

غير ان الدكتور حسين مؤنس ، يعزو حملة يوليان الى أمر تلقاه من موسى بن نصير لكن هذاالأخير خشي ردّ الفعل الذي يحدثه مثل ذلك العمل(٤٢) اما الاستاذ محمد عبدالله عنان والدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، فلم يتطرقا الى هذه الحملة في كتابيهما فيما عدا اشارتيهما الى وثوق موسى بن نصير بيوليان نتيجة لما عرضه عليه من مزايا الاندلس ومغانمها وما تعانيه من الخلاف والشقاق وما يسودها من الانحلال والضعف ، ورأى مما يعرضه يوليان من تسليم سبتة وباقي معاقله وتقديم سفنه لنقل المسلمين في البحر ومعاونته بجنده وارشاده ، كفيل بانتصار القوات العربية الاسلامية(٤٣) وان طارق بن زياد لم يتردد بالاتصال بموسى بن نصير الذي كان مقيماً

اذ ذاك بالقيروان فأبلغه ما كان من أمر يوليان ورحب موسى بما عرضه عليه يوليان(٤٤) .

والظاهر ان يوليان قد برهن عملياً على حسن نيته تجاه العرب وحطم الشكوك والظنون التي كانت تحوم حوله ، حيث قام فعلاً باستصناع ثلة من اهل عمله بعد سنة ٩٠هـ/٧٠٨م ودخل بهم في مركبين بساحل الجزيرة الخضراء فأغار وقتل وسبى وغنم واقام بها اياماً ثم رجع بمن معه سالمين وشاع الخبر عند المسلمين فآنسوا بيوليان واطمأنوا اليه(٤٥) ، وهناك من يقول ايضاً ان يوليان جرّد غارة سريعة ، لكنه لم يقم هناك بل عاد بعدها محملاً بالغنائم والسبي(٤٦) .

ويجعل بعض المؤرخين قيام الحملة الاستطلاعية التي كلف بها يوليان ورجاله الى المناطق الجنوبية من بلاد الأندلس قبل الاتصالات التي اجراها طارق بن زياد بموسى بن نصير واتصالات هذا الأخير بالخليفة الأموي في دمشق لاستمزاج الرأي في هذا العمل العسكري ، بيد اننا نميل الى الاعتقاد ، ان الاقتراحات التي كانت تقوم عليها افكار طارق بن زياد فيما يتعلق بضرورة اطلاع الخلافة على التوجه صوب الاندلس ، سبقت اي تحرك عسكري سواء من جانب العرب او بمعاونة هؤلاء الاسبان ، اذ ليس من الصواب ان يتوجه الاهتمام الى مثل هذا العمل ويجري ارسال الاستطلاعات ، قبل ان تعنّ للقادة العرب وبصورة خاصة طارق بن زياد، افكار بهذا الخصوص ، يمكن السعي الى طرحها امام الخليفة الأموي بغية تحقيقها .

ويبدو على اغلب الاحتمال ، ان موسى بن نصير وطارق بن زياد، قررا بعد هذه الحملة التي حققت بعض اهدافهـا في الوصول الى المناطق المتفق عليها ان ينتدبا احد القادة العرب ويعهدا اليه مهمة قيادة حملة استطلاعية تكون بمثابة الاستدلال الى هـذه البـلاد وتمهيد الطريق امام الجيوش التي يعهـد اليها بالزحف ، فاختارا واحداً من كبار القادة العرب هو «طريف بن مالك المعافري» المكنى بأبي زرعـة[٤٧] ، ويذكره الحميري باسم « طريـف بن ملـوك المعافري »[٤٨] والرازي باسم « طريف بن مالك المعافري »[٤٩] وابن خلدون « طريف بن مالك النخعي »[٥٠] . وعلى الرغم من اشارة بعض المصادر الى نسبه البربري[٥١] ، ولكننا نجزم بعروبته ، فقد كان من قبيلة « معافر » العربية[٥٢] او من قبيلة « نخع » العربيـة اليمانية[٥٣] . وانه من المستبعد ان يتولى الطليعة الكشفية الاولى ـ وهي مهمة خطيرة ، ستكون لها آثار بعيدة المـدى في الاعمال العسكرية المترتبة على دخول القوات والجيوش الى بلاد الاندلس ـ رجل من غير القادة المجربين[٥٤] .

ولا ريب فقد كان « طريف بن مالك المعافري » هذا رجـلا حازماً[٥٥] ، كما كان بارعاً في فنون الحرب[٥٦] والقتال ، الأمر الذي يستحق معه ان يشـار الى دوره الخطـير في تاريخ المغـرب[٥٧] والاندلس .

ولا نميل الى تصديق ما جاء به ابن عذاري وما نقله عنه المقري من ان موسى بن نصـير وطـارق بن زياد ، قد نظما حملتـين استطلاعيتين عهدا بواحدة منهما الى « طريف بن مالـك المعافري »

الذي ذكرت عنه المصادر الأخرى معلومات بهذا الصدد ثم تلتها أخرى قادها « ابو زرعة » وهو شيخ من البربر على ما يزعم به هذا المؤرخ ، وتجهزت كل من الحملتين بألف مقاتل « فأصابوا غنائم وفرقوا اهل الجزيرة ، فضرموا عامتها بالنار وحرقوا كنيسة كانت عندهم معظمة وانصرفوا سالمين »(٥٨) وعلى وفق ذلك فان كنية طريف بن مالك المعافري ، بأبي زرعة هي ربما تكون لرجل آخر لم ترد عن اسمه وما يتعلق بشخصيته معلومات مفصلة ٠

ويمكن القول ان مهمة الاستطلاع العسكرية التي نفذها طريف بن مالك المعافري لم تكن بمعزل عن آراء القادة العرب(٥٩) بمن فيهم طارق بن زياد حيث نوقشت وتم اعتمادها للحملة العظيمة التي اضطلعت بها الجيوش العربية الاسلامية ، وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف النصوص المتعلقة بهذا الصدد ، فان المعلومات المتوفرة تفيد بايعاز هؤلاء القادة الى طريف بن مالك المعافري للعبور من جهة سبتة سنة ٩١هـ/٧١٠م في قوة صغيرة مؤلفة من (٥٠٠) مقاتل ، منهم اربعمائة من الجند المشاة ومائة من الفرسان ، حيث نزل بهم في جزيرة صغيرة تسمى « لاس بالوماس Las Palomas Islande تقع على مقربة من مدينة طريف Tarifa الحالية ، وقد سميت هذه الجزيرة باسمه « جزيرة طريف » ٠ وتوغلت الحملة التي اقترنت بهذا القائد خلال الجزيرة الخضراء(٦٠) فأصابت كثيراً وقوبلت بالاكرام والترحيب وشهدت الكثير من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، ثم عادت في امن وسلام(٦١) ٠ وينقل سافدرا مقولة تفيد بتقديم يوليان أربعاً من السفن ، عبرت بها قوة

طريف بن مالك المعافري(٦٢) كما خفت لعونهم ومساعدتهم ثلة من انصار يوليان وابناء غيطشة ، وقد قاموا جميعاً بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل الجنوبي الشرقي للاندلس(٦٣) حققوا فيهـا انتصارات ثم عاد طريف بن مالك بمن معه من الجند ومن التحق به من الاسبان .

ويحق لنا ان نتساءل هنا مادمنا نتحدث عن طبيعة هذه الحملة وبواعثها والنتائج التي ترتبت عليهـا ، لمـاذا انطلقت من مدينـة « سبتة » ؟ وربما يسوغ لنا أن نقبل التحليل الذي يقوم على الدور المهم الذي قام به طارق بن زياد في تهيئة متطلبات الحملة ومستلزماتها وتيسير عوامل الانتصار فيها . فلعل هذا القائد قد عهد فعلاً الى يوليان تزويدها بالادلاء والسـفن وهو استمرار لما درج عليـه طارق بن زياد في تطوير الثقة بيوليان وآل غيطشة والاطمئنان اليهم لأمر اكثر اهمية في المستقبل وذلك وفقاً لما اشار اليه ابن عبدالحكم من ان طارق بن زياد « استوثق من يوليان وخرج اليه وهو بسبتة على المجاز »(٦٤) على ان ابحار الحملة من سبته يتيح ليوليان واعوانه فرصـة اكثر سـنوحاً لتقديم هـذه المساعدات والانصـراف الى متطلباتها .

ولعل القواد العرب وخصوصاً موسى بن نصير وطارق بن زياد لم يروا ضرورة تشكيل سرية او سرايا أخرى تبعاً لاشارة الخليفة ، فاكتفوا بهاتين السريتين الاستطلاعيتين اللتين رسـمتا الطريـق ومهدتاه امام الزحوف في المستقبل ، والمصادر المتوفرة لا تشير الى قيام سرية أخرى ، وذلك على الرغم مما جاء في رسـالة الخليفـة بضرورة خوض هذه البلاد البعيدة « بالسرايا » ولم تشر بسرية

واحدة . ولما كانت النتائج التي ترتبت على هاتين السريتين، قد اتاحت لطارق بن زياد ان يضع الترتيبات اللازمة لحملته المقبلة على الاندلس وان يعتمد الخطط العسكرية لعملياته وان يرسم الخطوط العامة لتحركات قواته باتجاهها ، فمن المحتمل جداً ان يقطع هذا القائد برأيه حول الاقتصار على تلك السريتين وعدم تجاوزهما بسرية أخرى ، وذلك على الرغم من ان الروايات والنصوص العربية مقلة موجزة في الكلام في هذا المجال احياناً او انها قد تصل الى حد الانعدام وعدم التطرق اليهما في أحيان اخرى .

هوامش الفصل الثاني :

(١) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٥٢ ؛ د . السيد عبدالعزيز ، المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٧١ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٧١ .

(٢) ذكر ابن عبدالحكم ، ان يوليان « كان يؤدي الطاعة الى لوذريق صاحب الاندلس » فتوح افريقية والاندلس جـ ١ ص ٢٠٤ ؛ فيما يقرر صاحب اخبار مجموعة : « انه علج وانه كان يحكم مداين على شط البحر فيها عمال صاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، وكان على راس مدينة سبتة علج يسمى يوليان ، يدل على ان هذا الأخير كان عاملا من عمال لوذريق (اخبار مجموعة ص ٤) كما وصف بالرومي والقوطي ولقب بالبطريق (ابن عذاري ــ البيان المغرب جـ ١ ص ٢١١ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ٤ ص ٨٦ ؛ ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١٨٥) .

(٣) نقل الدكتور حسين مؤنس عن سافدرا قوله :
« رأى يوليان ان يبعث الى طارق بن زياد وفداً براسه رجل من اكبر اتباعه يسمى « اخيلا » شرحوا له مظلمتهم وصوروا له سوء

حالتهم بعد الذي اصابهم من لوذريق وغدره ، وقد تاثر طارق لهذا الكلام فبعث الى موسى في القيروان . والظاهر ان هذا الأخير قدر خطورة المسالة فارسل الى دمشق ليبسطوا المسالة للخليفة ويقنعوه بضرورة الاذن في الدخول الى هذه البلاد وانهم عادوا من دمشق بالاذن المطلوب فسارع موسى بن نصير الى تنفيذه واحب ان يستوثق من صدق نية هؤلاء القوم فطلب اليهم ان يسلموه رهائن من لدنهم يكونون عنده ، غير ان الباحث يقول ان هذا الكلام يحتاج الى اثبات ، أما اخيلا فقد ورد ذكره عند ابن عذاري (فجر الاندلس ص ٦٢) .

(٤) محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام ص ٣٨-٣٩ نقلا عن ابن الاثير ، الكامل جـ ٤ ص ٢١٣ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٦ .

(٥) د . حسين مؤنس ، المصدر السابق ص ٥٩ .

(٦) كان يوليان مدفوعاً الى هذا الأمر نتيجة التماس اولاد غيطشة الذين سلبهم لوذريق عرش ابيهم حيث امعن في مطاردتهم ويقال انهم اتصلوا من طريقه بالعرب وحثوهم على فتح الاندلس ، ومن المرجح ان يوليان كان من انصار لوذريق بعد ان خرج على البيزنطيين واستقل باقليم مورطانيا الطنجية ، وبما ان يوليان يمت بصلة القرابة الى اولاد غيطشة ، لذلك ساعدهم على هذا الاتصال ، وقد اعتقد هؤلاء بمن فيهم يوليان ، ان العرب الطارقين الى الاندلس لا حاجة لهم في استيطانه بعد فتحه وانما تحدوهم الغنائم والثروات (اخبار مجموعة ص ٦ ، ٧ ؛ الحميري ، الروض المعطار ص ١٠ ؛ المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤١) .

(7) Saavedra (Eduardo): Estu dio Sobre la Invasion de los Arabes en Espana (Madrid, 1892) p. 60; Aquado Bleye Manuel de la Historia de Espana (Madrid, 1947) p. 357; Leve-Provencal, Histiore del Espange Musulmane (Leiden, 1950) p. 18.

وقد نقل هؤلاء العبارات التي جاءت بهذا الصدد في مدونة (بدرو د. كورال) المسماة
(Coronica del Rey bon Rodrigo)
ويزعم بدرو دي كورال انه نقل هذه الاسطورة من المؤرخ احمد بن موسى الرازي في كتابه « الرايات » .

(٨) فتوح افريقية والاندلس ص ٩٠ واورد صاحب اخبار مجموعة ان يوليان قال : « ودين المسيح لازيلن ملكه ولاحفـرن تحت قدميه » ص ٥ ونقل عنهما المقري ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٦ غير ان هذا الاخير يورد بعض التفصيلات .

(٩) يزعمون ان العرب اطلقوا عليها هـذا الاسـم ، كما ورد اسم « فلوروندا » في عـدد كبير من الروايات الاسـبانية المتاخرة وفي اشعار « الرومانسيرو » حيث جاء ان « لوذريق شاهدها وهي تسبح في وادي نهر تاجة فاطلق عليها اسم "Bano de la Cara" مما يشير الى مدى الاهتمام الذي يوليه الغربيون لهذه « الحكاية » . اما ورودها عند المؤرخين العرب من امثال ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس ص٨ . واخبار مجموعة ص٥ وابن عذاري، البيان المغرب ج ٢ ص ٩ . وابن عبدالمنعم الحميري ، فتـوح افريقيا والاندلس والمحتمل ان غيرها ذكر ذلك ايضاً والسبب واضح جداً فالمأثرة العربية الاسلامية في تحرير هذه البلاد تركت اثراً عميقاً بالاعجاب الممزوج بالخيال فاخترعت هذه القصـة ، كما ان تاريـخ الاندلـس امتزج بكثـير من القصص الخياليـة والاساطير وربما استهدف المؤرخون العرب من ذكر هذه القصة الاسترسال في تاريخ هذه البلاد .

(١٠) Saavedra, op. cit. pp. 58-59.

واهل اصل القصة في رايه ان يوليان قد ارسـل نفراً من اهله الى طليطلة ليأمنوا فيها بعد ان حاصر طارق بن زياد سبتة وهددها بالاجتياح وكاد ان يدخلها ؛ وقد استند لتوثيق ما جاء به في هذا الصدد ان ابن خلدون وسان بدرو بسكوال يذهبان الى ان الذي اعتدى على ابنة يوليان كان غيطشة وليس لوذريق لان العـداء الذي كان بينه وبين لوذريق يمنعه من ارسال ابنته الى طايطلة .

(١١) فجر الاندلس ص ٦٣ – ٦٤ .

(١٢) يقول الدكتور حسين مؤنس ، ان هذا ما حدث فعـلا وبهذا ادركوا ثارهم منه واستعادوا بعض ما ضاع منهم ، لأن العرب ، وان كانوا لم يعيدوا الامر الى بيت غيطشة الا انهم « امضوا لابناء غيطشة ضياع ابيهم ، وكانت شيئاً كثيراً واقاموا نفراً آخر من آل بيت غيطشة في وظائف كبرى، (المصدر السابق ص ٦٤) .

(١٣) وهي ثلاثة آلاف ضيعة ، نفائس مختارة ، وقد سميت صفايا الملوك (ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ٣) .
(١٤) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٦٨ – ٦٩ .
(١٥) فجر الاندلس ص ٦٤ .
(١٦) دولة الاسلام في الاندلس ص ٣٩ .
(١٧) م.ن. ص ٣٩ – ٤٠ .
(١٨) اخبار مجموعة ص ٥ .
(١٩) ابن عبدالحكم ، فتوح افريقية والاندلس ص ٩ – ٩٣ ؛ (اخبار مجموعة ص ٥ – ٧ ، المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣–٢٤ .
(٢٠) فجر الاندلس ص ٥٤ – ٥٥ .
(٢١) فتوح افريقية والاندلس ص ٢٠٥ .
(٢٢) فجر الاندلس ص ٥٥ .
(٢٣) فجر الاندلس ص ٦٦ .
(٢٤) م.ن. ص ٥٤ .
(٢٥) اخبار مجموعة ص ٨ .
(٢٦) م.ن. ص ٥٦ .
(٢٧) م.ن. ص ٥٧ ، محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام ص ٣٨ .
(٢٨) م.ن. ص ٥٧ ، م.ن. ص ٣٩ .
(٢٩) فجر الاندلس ص ٥٧ – ٥٨ .
(٣٠) م.ن. ص ٥٨ – ٥٩ .
(٣١) م.ن. ص ٥ .
(٣٢) م.ن. ص ٧ .
(٣٣) م.ن. ص ٧ .
(٣٤) م.ن. ص ٧ ، ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٦ .
(٣٥) فجر الاندلس ص ٥٨ .
(٣٦) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٦٩ .
(٣٧) دولة الاسلام في الاندلس ص ٣٩ .
(٣٨) ابن عبدالحكم ، فتوح افريقية ص ٩٠ ، اخبار مجموعة ص ٥ ، ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٦ ، الحميري ، وصف جزيرة الاندلس ص ٨ .
(٣٩) اخبار مجموعة ص ٥ ، ابن عذاري ، المصدر السابق ص ٦ .

(٤٠) « ... فبعث اليه يوليان بابنتيه — ولم يكن له ولد غيرهما — فاقرهما طارق بتلمسان واستوثق منهما ، ثم خرج طارق الى يوليان وهو بسبتة على المجاز » (فتوح افريقية والاندلس ص ٢٠٥) .

(٤١) م.ن. ص ٢٠٥ .

(٤٢) فجر الاندلس ص ٦٦ .

(٤٣) دولة الاسلام في الاندلس ص ٣٩ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٦٩ .

(٤٤) م.ن ص ٣٩ ، ٦٩ على التوالي .

(٤٥) بسام العسلي ، موسى بن نصير (دار النفائس ، بيروت) (ط ٢ — ١٩٧٨) ص ٣٠ .

(٤٦) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٦٦ .

(٤٧) الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ص ٨ .

(٤٨) م.ن. ص ٨ .

(٤٩) كما جاء في كتاب المقري ، نفح الطيب ج ١ ص ٢١٤ .

(٥٠) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ص ٢٥٤ .

(٥١) الحميري ، المصدر السابق ص ٨ ؛ الحجاري ، كما جاء في نفح الطيب ج ١ ص ٢١٤ .

(٥٢) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب .

(٥٣) م.ن .

(٥٤) د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٧٠ .

(٥٥) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٦٦ .

(٥٦) د . السيد عبدالعزيز سالم ، المصدر السابق ص ٧٠ .

(٥٧) لعب دوراً خطيراً في الثورة التي قام بها ميسرة البربري البرغواطي في المغرب الاقصى وهي أولى حركات خوارج المغرب ضد الحكم العربي الاسلامي (ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ٥) .

(٥٨) البيان المغرب ج ٢ ص٦ ؛ انظر المقري ، نقلا عن ابن عذاري ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٤ .

(٥٩) من امثال ، عياش بن اخيل وزرعة بن ابي مدرك والمغيرة بن ابي بردة العلري وعبدالملك بن ابي عامر ، وابناء موسى بن نصير ، عبدالله وعبدالعزيز ومروان وعبدالملك وعبدالاعلى .

(٦٠) وصفها ابو الفدا بانها مدينة امام سبتة من بر الاندلس الجنوبي ، وقد توسطت مدن الساحل واشرفت بسورها على البحر ومرساها احسن المراسي للجواز (للعبور) وارضها ارض زرع وضرع وبخارجها المياه الجارية والبساتين النضرة (تقويم البلدان ص ١٧٣ ـ ١٧٤) والجزيرة الخضراء تسمى حاليا باسم « الجزيرة »

(٦١) محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ص ٤٠ .

(٦٢)

Saavedra, Eduardo Estudio la Invasion de la Arabes en Espana (Madrid, 1882) pp. 64.

(٦٣) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٦١ .

(٦٤) فتوح افريقية والاندلس ص ٢٠٥ .

الفصل الثالث

طارق بن زياد قائداً عسكرياً

تمخض القرن الاول الهجري عن ولادة عدد من القادة العسكريين العرب الميدانيين ، برزوا خلال انتشار السيادة العربية في المشرق والمغرب ولعل طارق بن زياد كان أحد مجموعة القادة الافذاذ الذين ظهروا في بلاد المغرب بفائق شجاعتهم وبراعتهم ، وقد اقترنت باسمه جميع الانتصارات التي احرزتها الجيوش العربية الاسلامية في بلاد الاندلس . ويمكن فهم شخصيته كقائد عسكري ميداني بما اتصف به من مواهب وقدرات في ادارة المعارك ورسم الخطط وتوجيه اساليب القتال والتعرف الى الجند وادراك قدراتهم في الحرب ومبادراتهم وتطلعاتهم اثناء اشتداد الوطيس .

لقد تمرس طارق بن زياد في القيادة العسكرية وظهرت مواهبه وسطوته منذ اشتراكه في مقاتلة الخارجين على السيادة العربية في بلاد المغرب خلال ولاية زهير بن قيس البلوي على افريقية ، ويبدو ان مؤهلاته وكفاءته العسكرية رشحته لتجعله اميراً على برقة عندما

استشهد زهير بن قيس فيهـا ، غير انه لم يلبث طويـلاً في هـذا المنصب ، اذ اختاره موسى بن نصير قائداً في جيشه فأبلى بلاء حسناً في حروبه التي خاضها معـه ، وللاسف لا توجـد لدينا معلومات مفصلة عن هذه المرحلة من حياته ، بيد ان عزائم هذا القائد ومهارته تجلت في قيادة العساكر واكتساب النصر في كل معركة يخوضها ، مما أهلته لتولي منصب القيادة في مقدمة جيوش المغـرب قاطبة . ويورد الدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، نص عبيد الله بن صالح وهو يذكر ان موسى بن نصـير « جمع الرهائن من قبـل كتامة وزناتة وهوارة مع رهائن حسان بن النعمان ، وكانت عدتهم اثني عشر الف فارس وولى عليهم طارق بن زياد ورجع الى افريقية »(١) .

ويصح القول ، ان تسنم طارق بن زياد لقيادة مقدمة الجيوش في بلاد المغرب الذي يعادل في الوقت الحاضر منصب القائد العام ترك تأثيره في نفس هذا القائد ، حيث قدّر له ان يكون قائداً ماهراً ومستودعاً للثقة والامانة والاخلاص لمبادئه ومثله ولقائـده الاعلى موسى بن نصير ، مما هيأ له ان يساهم مساهمة فعالة في الاستيلاء على حصون المغرب الاقصى من حدود بلاد الجريد وقسطيلية ثـم القيروان وسوسة وقرطاجنة شرقاً حتى المحيط الاطلسي غرباً .

غير ان حملته التاريخية على بلاد الاندلس ومدنها ومعاقلها التي جاءت عنها معلومات غنية ، اظهرت بوضوح تام عبقريته القيادية في المجال العسكري ، ففي يوم الاثنين الخامس من رجب من عام ٩٢هـ/ الموافق في السابع والعشرين من أبريل سنة ٧١١م ، عبأ طـارق بن زياد جيشه الذي لا يتجاوز السبعة آلاف مقاتل ، وكان على رأس

كل كتيبة من كتائبه رجل سيكون له شأن كبير فيما بعد نخص بالذكر منهم عبدالملك بن ابي عامر المعافري ومغيث الرومي وهو مولى الوليد بن عبدالملك وعلقمة اللخمي(٢) وكذلك من بينهم مونوسة البربري وعدد من كبار محاربي البربر . ويذهب الدكتور حسين مؤنس الى القول ، ان موسى بن نصير ، تعمد ان يختار هؤلاء القادة ليضمهم الى جيش طارق بن زياد وهم من خيرة جنده ، لانهم سيقومون بما عهد اليهم بدقة وقدرة تبعثان على الاعجاب(٣) .

والظاهر ان اختيار هؤلاء القادة العرب سواء أتم من قبل الخليفة في دمشق أم من قبل موسى بن نصير للاشتراك في حملة طارق بن زياد ، فانه يدل على المكانة العظيمة التي كان يحتلها هذا الأخير من الناحية العسكرية في الاقل ، لان الخليفة وموسى بن نصير وضعاه على رأس هذه القائمة وآثروه عليهم فتخطاهم ، جدارة ومقدرة ، فضلاً عن انه استطاع ان يبتدع الخطط والموضوعات العسكرية التي افضت الى الانتصارات في جميع العمليات في ساحات المعارك والمواقع في هذه البلاد .

لقد جانب الحقيقة قول الدكتور حسين مؤنس ، ان موسى بن نصير عهد بقيادة الجيوش الى طارق بن زياد ، بغية العبور الى بلاد الاندلس ، لأنه هو رجل ثقة مأمون عنده لا يطمع في الغنائم التي ستوفرها هذه البلاد ولا يتحدث بأمرها على الحقيقة عند العرب والخلفاء(٤) كما لا يمكن مجاراة الاستاذ محمد عبدالله عنان في قوله ولا ندري من اين استقى معلوماته بهذا الصدد من ان موسى

ابن نصير كان من جانبه يؤكد ليوليان انه لا يقصد بالغزو سوى مجد الفتح وكسب الغنائم التي سوف يستحصلها له طارق بن زياد(٥). ان هذه الآراء التي درج المؤرخون الغربيون والمستشرقون على التصريح بها في بحوثهم ودراساتهم وجهد بعض المؤرخين العرب بترديدها في كتاباتهم هي تجنٍّ واضح على الاهداف الحقيقية التي سعى العرب المسلمون الى انجازها من خلال نشر السيادة العربية والاسلامية في بلاد الاندلس ، كما يبدو من هذه الاقوال وغيرها ، ان الخطط العسكرية وضعت للحصول على الاسلاب والمغانم دون تحقيق هذه الاهداف .

ومن الانصاف التأكيد هنا على الارتباط الوثيق بين دور طارق بن زياد وحضوره كقائد عسكري تربطه مع جنده وعساكره صلات تقوم على التفهم الصحيح لمعالجة عملية العبور والانتشار في في هذه البلاد واحراز النصر وبين انجاز ما استهدفه العرب المسلمون لنشر الاسلام ومبادىء العروبة وتثبيت اقدامهم فيها ، فلقد طالما نسمع ،ان طارق بن زياد كان يبث في جنده وقادته روحه العسكرية ويرسم لهم الخطط ويوجههم نحو العمليات ويحثهم على انجازها سواء قبل البدء بالعبور او خلاله او عندما « وطأت سنابك خيولهم ارض ما بعدالزقاق »(٦) ، مما يعزز هذا الرأي ويقدم لنا صورة فيها كثير من الوضوح عن اهداف العرب الحقيقية التي مرّ ذكرها .

وتتجلى للمدقق شخصية طارق بن زياد واقتداره العسكري ، عندما يدرس بامعان عملية العبور التي وضع هذا القائد خطتها . وهنا يتوجب علينا ان نتساءل عن طبيعة الخطة العسكرية التي عول على تطبيقها سنة ٩٢هـ/٧١١م ؟

لقد مرّ بنا كيف انه هيأ العوامل التاريخية لاجتياز المضيق بجيوشه الى شبه الجزيرة الايبيرية ، وبقي عليه وضع خطة لنقل جنده عبر الممر المائي والظاهر ان خطته تلخصت في جواز عسكره من ناحية سبته تباعاً في السفن القليلة التي اعدها لهذا الغرض ، ومن المرجح جداً ان عبوره هو نفسه قد تمّ في الدفعة الأخيرة التي اشتمل عليها برنامج العبور لكي يطمئن على جواز آخر جندي في جيشه ، وقضت الخطة ان يقيم من يعبر منهم ساكناً في خفية من اهل الشاطىء حتى يتم جواز الجيش كله(٧) ، ولكن صاحب اخبار مجموعة يذكر ، ان الحملة ابحرت سنة ٩٢هـ من طنجة في السفن الأربع التي كان قد اعدها يوليان ووضعها في خدمة العرب(٨) ويمضي هذا المؤرخ قائلاً : « واختلفت السفن بالرجال والخيل بين شاطىء الزقاق تنقل الجند الى جبل على شط البحر منيع »(٩) يقدم لنا ابن عذاري رواية أخرى ومفادها ، ان يوليان كان يحمل « اصحاب طارق في مراكب التجار التي كانت تختلف الى الاندلس ولا يشعر اهل الاندلس بذلك ويظنون ان المراكب تختلف بالتجارة ، فحمل الناس فوجاً بعد فوج الى الاندلس(١٠) » .

وعلى الرغم من ان الجيش الذي كان يقوده طارق بن زياد يتألف من سبعة آلاف مقاتل وهو ما أجمعت عليه المصادر العربية(١١) انضيف اليه خمسة آلاف مقاتل . الامداد الذي أرسله موسى بن نصير ، وهو عدد متواضع اذا قورن بتقدير الجيوش العربية الأسلامية التي حررت العراق والشام ومصر والمغرب ابان تدفق الاسلام الى هذه البلدان ، فان هذا الجيش اثبت مقدرة على النزول الى مدن الاندلس ومعاقلها وقلاعها وبدأ يدحر المقاومة ويبددها

ويدخل فيها منتصراً ، ومن المؤكـد انه لولا الخطـط الـسـديدة والموضوعات التي لقنها اياه قائده لم يكن لهذه المسـيرة ان تثمر بالانتصارات المتوالية وخاصة اذا ما علمنا ان عساكر طارق بن زياد هذه كانت تواجه في ساحات المعارك ، عشرات اضعافها من قوات المقاومة والجيوش القوطية •

ونستطيع ان نستدل على قيادة طارق بن زياد التي اثبتت نجاحها في العبور استخدامه المفيد للسفن الأربع التي اعدهـا الاسـبان فضلاً عما استعان به من قطع الاسطول التي اتنجتها دار الصناعة في تونس[١٢] والسفن التي كان يتنقل فيها التجار في الزقاق بين المغرب واسبانيا ، حيث لا يمكن ان يتم نقل جيش عدته سبعة آلاف مقاتل بسفن أربع خلال مدة قصيرة لا تتجاوز بضعة أيام ، كما لا يمكن في الوقت عينه اطالة مدةالعبور لأمور تتعلق بأمن الحملة وكتمانهـا لكي « لا يتألب عليه مَن في الجزيرة »[١٣] فضلاً عن ذلك ، فلم تقتصـر الخطـة التـي وضعهـا طـارق بـن زيـاد بجـواز الجنـد بـين شـاطيء الزقاق وانمـا شـملت الخيـل ايضاً : كما اشار الى ذلك صاحب اخبار مجموعة بقوله « فاختلفت السفن بالرجال والخيل »[١٤] فهذه المهمة تبدو على غاية الصعوبة اذ يتطلب الأمر السيطرة الدقيقة على عملية العبور لئلا يتسبب حمل الخيول عبر الزقاق في اثارة شكوك من في السواحل •

وكانت الخطة تقضي بالتجمع في البقعة الصخرية المقابلـة الى سبتة وبالتحديد عند جبل « كالبى Calpe »[١٥] الذي عرف فيما بعد « بجبل طارق Gibraltar » او جبل الفتح • ومن المؤكد ان

تسمية هذا الجبل باسم طارق بن زياد انما يعزى الى نجاح خططه العسكرية في الوصول الى هذه المنطقة التي اتخذها معسكراً دائماً لجنده ونقطة انطلاق الى داخل اسبانيا ، فيذكر ابن عـذاري[١٦] وينقل عنه المؤرخون ، ان حشود العساكر التي اجتازت الزقاق ، راحت تتوافى في النزول ادنى الجبل وبادر طارق بن زياد الى انشاء قاعدة عسكرية ومرسى للسفن بسبتة وذلك ان المرسى الذي اوجده طارق بن زياد في الجزيرة الخضراء هو « أيسر المراسي للجـواز واقربها من بر العدوة ويحاذيه مرسى مدينة سبتة »[١٧] وهو السبب الذي حدا بهذا القائد الى اتخاذ قرار العبور من سبتة وليس من طنجة .

واقام طارق بن زياد سوراً حول هذا الجبل ، بناه من الحجارة والطين عرف « بسور العرب »[١٨] ، ولعل طارق بن زياد هو الذي اطلق على هـذا السور تسميته التي عرفت به في المصادر العربيـة والقشتالية معاً[١٩] غير ان الدكتور حسين مؤنس يذهب الى القول ، بان طارق بن زياد اجتهد في ان يحصن هـذا الموضع تحصيناً طيباً ليتخذ منه حصناً يحتمي به المسلمون اذا حدث ما لم يكن منتظراً[٢٠] وربما لم يقتنع بالرواية المتعلقة بالسور ومحتواها فلم يتطرق اليها ، وكذلك فعل الاستاذ محمد عبدالله عنان[٢١] .

ولعل من الصواب ان نستنتج ما يدل على اقتدار طارق بن زياد العسكري وذلك من خلال انشاء المعسكر الذي كان بمثابة القاعدة العسكرية الدائمة في ارض الاندلس بغية الانطـلاق الى الداخل ، فقد أمنت هذه القاعدة وصول الامدادات والمؤن للجيوش الزاحفة

في عمق البلاد وأوجدت لها خطوط محتملة للتراجع ، كما اصبحت مراكز اتصال بالقواعد التي سعى الى اقامتها في مناطق المدن والاقاليم الاندلسية لغرض التأمين على تطبيق خطط العمليات والاشتباكات مع الجيوش والمقاومة القوطية .

ومع اننا نشك في ان يعهد طارق بن زياد الى يوليان ورجاله من الجند بحراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم مباغت يتعرض له(٢٢) كما جاء به سافدرا نقلا عن مصادر قشتالية(٢٣) ، فاننا نميل الى الاعتقاد ، بان طارق بن زياد ليس بوسعه ان يعهد الى غير جنده وقواده بحماية « نقطة البداية » لاكبر عمل عسكري في تاريخ المغرب العربي الاسلامي عموماً ، وذلك على الرغم من الثقة التي كان قد اولاها الى يوليان واعوانه ، وربما يكون من الصحيح ان ينضم هذا الاخير او بعض جنده او رجاله الى الحامية الاسلامية التي كلفت بالمرابطة هناك ، فالرازي يشير من طرف الى ان طارق بن زياد كان يصطحب يوليان في زحفه الى المواقع والمدن والمعاقل داخل الاندلس(٢٤) وهو أمر له من الوجاهة ما يحملنا على قبوله ، اذ سيجني طارق بن زياد بعض الفوائد من ذلك على ان يبقيه في هذا الموضع الخطير ، ثم ان الخطة كانت تقضي بان يكون يوليان واعوانه وآل غيطشة وبعض الاسبان ، أدلاء على الطرق والمسالك الى مجاهل هذه البلاد ، فقد اشار صاحب اخبار مجموعة الى ان يوليان « اقبل الى طارق ، فقال له : قد فرغت بالاندلس وهؤلاء ادلاء من اصحابي »(٢٥) .

هوامش الفصل الثالث :

(١) تاريخ المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ (النص الذي نشره بروفنسال بعنوان « نص جديد عن فتح العرب للمغرب » ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، المنشور في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد مجلد ٢ ـ ١٩٥٤) ص ٢٢٤ .

(٢) د . السيد عبدالعزيز سالم ، المغرب الكبير جـ ٢ ص ٢٧٣ .

(٣) فجر الاندلس ص ٦٨

(٤) فجر الاندلس ص ٦٨ .

(٥) دولة الاسلام في الاندلس ص ٤٠ .

(٦) ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ٩ . ثم انظر : ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣ ، المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٨ ، ٢٣٩ .

(٧) د . حسين مؤنس ، المصدر السابق ص ٦٩ .

(٨) اخبار مجموعة ص ٦ .

(٩) م.ن. ص ٧ .

(١٠) البيان المغرب جـ ٢ ص ٨ .

(١١) اخبار مجموعة ص ٦ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب ص ٨ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ١٢٢ ؛ ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٢٥٤ المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٦ ، ٢٣٨ .

(١٢) الدار التي اقامها حسان بن النعمان والي المغرب ومصر لبناء السفن ، بغية مدافعة البيزنطيين في البحر وحماية الثغور البحرية او شن الغارات على مدنهم الساحلية ، وقد استخدم في بنائها الأقباط الذين جيء بهم من مصر (البكري المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ص ٣٨ ـ ٣٩) .

(١٣) ابن عذاري ، المصدر السابق ص ٩ .

(١٤) اخبار مجموعة ص ٧ .

(١٥) Leve-Provençal, Histoire de Espange Musulmane, T. 19.p. 18.

(١٦) البيان المغرب جـ ٢ ص ١٢ ؛ ثم انظر : المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٨ .
(١٧) الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ص ٧٤ .
(١٨) ابن عذاري ، المصدر السابق جـ ٢ ص ١٢ .
(١٩) المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٨ .
(٢٠) فجر الاندلس ص ٦٩ .
(٢١) دولة الاسلام في الاندلس ص ٤١ .
(٢٢) د . حسين مؤنس ، المصدر السابق ص ٦٩ ؛ د . السيد عبدالعزيز سالم تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٧٣ .
(٢٣)
Saavedra, Estudio Sobre la Invasion de los Arabes en Espana (Madrid, 1892) p. 65, 60.
(٢٤) كما جاء عند المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٤ ؛ وهناك اشارة مماثلة في اخبار مجموعة ص ١٠ .
(٢٥) اخبار مجموعة ص ١٠ .

الفصل الرابع

خطط طارق بن زياد العسكرية

لقد رسم طارق بن زياد لخوض عملياته في منطقة جنوب الاندلس ، اطاراً من الخطط العسكرية العامة والتفصيلية ، ولعل اوضح صورة للخطط العامة هي التي تمثلت بالدخول في وسط الاندلس واخضاع المدن والقلاع والوصول الى طليطلة عاصمة القوط الغربيين • وعلى الرغم من التأكيد الذي جاء به بعض المؤرخين والاخباريين حول مخالفة طارق بن زياد للأوامر الصادرة اليه بشأن الخطة العسكرية بعدم تجاوز قرطبة او حيث تقع هزيمة القوط[1] ، فان اجتياز الاندلس من الوسط والوصول الى اشبيلية وقرطبة ومن ثم الى طليطلة كان على رأس المهام التي وضعها طارق ابن زياد في عملياته العسكرية وذلك بغية استثمار الانتصارات الاولى والتحرك صوب المعاقل والمدن المنتشرة هناك بعد ان فرغ نهائياً من تبديد كتلة المقاومة الرئيسية المتجمعة بالقرب من مدينة شذونة[2] والقضاء عليها فضلاً عن بعض الكتائب والجند القوط ، وهذا القرار ليس فيه مخالفة سوى انه رأى ببصيرة ، ان متابلته لجيوش القوط الكثيفة تتطلب اتخاذ خطة عسكرية معينة ينبغي ان تتلاءم مع الظروف والأحوال التي استجدت لديه فيما بعد •

والظاهر ان موسى بن نصير كان يتابع طارق بن زياد وهو يجسد خطته العسكرية العامة في التوغل العميق داخل البلاد الاندلسية مظهراً استعداداته وحاشداً القوى والوسائط الضرورية لمعاركه التي خطط لها ومنصرفاً الى تنظيم قواته المؤلفة من عساكره وجنده وبعض القادة من العرب ، وفي اثناء ذلك النشاط المتزايد ، لا نجد اية معلومات ولا نسمع في المصادر المتوفرة لدينا ما يشير الى اعتراض موسى بن نصير او امتعاضه مما أقدم عليه قائد الجيوش الاندلسية.

ويبدو ان فكرة الخطة الهجومية قد اختمرت في ذهن طارق بن زياد منذ كلفه موسى بن نصير بقيادة الحملة العسكرية على الاندلس حيث انضجتها الاجراءات التي اتخذها بهذا الاتجاه مع اركان مساعديه وجنده ، ولدينا من الدلائل ما يشير الى انفراده في وضع هذه الخطة واحكام خيوطها ومتطلباتها ، فقد ذكر صاحب اخبار مجموعة ، ان موسى بن نصير ، رفض ان يسلك الطريق التي كان قد سلكها طارق بن زياد في عملياته العسكرية في بلاد الاندلس[٣] ، كما اشار ابن القوطية القرطبي الى ان موسى بن نصير « ترك المدخل الذي دخل منه طارق بن زياد »[٤] .

ويتبين من ذلك بجلاء ، دور هذا القائد وبعد نظره في الخطة التي احكم فصولها ، فيما استصدر له من امر العودة الى المغرب بعد توغله في مناطق الاندلس وتحقيق النصر فيها ، وعدم الامتثال لهذا الأمر ، عندما وجد ان الابواب قد فتحت أمامه ، فلا معنى لتركها والعودة الى المغرب[٥] حيث مضى في سبيله مطبقاً خطته التي

كان قد رسمها ومذللاً الصعاب ومحققاً التقدم في مجاهل هـذه البلاد ومفازاتها .

غير ان انفراد طارق بن زياد في وضع خطته العسكرية العامة لم يكن يعني بأي حال من الاحوال استبعاده لمشورات قادة كتائبه وارتاله الذين اشتركوا معه في حملته التاريخية هذه ، فقد كان هؤلاء القادة يمثلون هيئة استشارية اركانية لشؤون الحرب وادارة المعارك التي كانوا يخوضونها امام جيوش القوط الغربيين . ولا مندوحة ، ان يستعين طارق ابن زياد بآرائهم ومقترحاتهم في تعديل الخطة التي اعدّها ، او تطويرها بما يتلاءم وظروف المعارك وطبيعة المناطق التي كانت تجري فيها .

ويستفاد مما ورد عند الرازي(٦) وابن عذاري(٧) وهما ينقلان مشورة يوليان لطارق بن زياد في اعتماد بعض الخطط العسكرية التي كان يراها ضرورية في استكمال الانتصارات في ميادين بعض العمليات وتعزيزها ، ان هذا القائد العربي ، كان يستند الى خطة واضحة المعالم تتجسد فيها تطلعاته في احكام روح النصر خلال معاركه في جميع المناطق التي وطئتها اقدامه ابتداءً من الجنوب الى اقصى نقطة وصلتها جيوشه في منطقة طليطلة ، كما امتازت خططه باستراتيجية بعيدة المدى وبالتصور للاوضاع المتردية التي كانت عليها اسبانيا ، فلم يفرط بالامكانيات المتاحة له ، بل استثمرها لصالح التقدم الى الامام هذا الى جانب وضوح الهدف بصورته الكاملة الذي تركز حوله الطموح غير المحدود وعدم الاندفاع والمغامرة بأرواح جنده وعساكره والتفريط بقواته واحتياطاته .

اما الخطط التفصيلية التي اعتمدها طارق بن زياد في عملياته العسكرية في بلاد الاندلس ، فلدينا معلومات مفصلة عنها ، يمكن ان تغني الموضوعات التي تضمنتها ، ويبدو ان اولى الخطط التي بدأها ، هي انطلاقه من قاعدة قوية وامينة ، فحدد المخطط لعملياته على اساس الزحف التدريجي في تعرضه للعدو ، فلا ينبغي له التقدم الا بعد تأمين خطوط سيره الى الأمام وكذلك عدم التوغل في مجاهل البلاد قبل احتلال المواقع والمدن واتخاذها قواعد امدادية وتموينية ، وتصفية كل اثر للمقاومة في المناطق التي تنتشر فيها قواته أو يحكم فيها تواجد « من ينصره من اهل البلاد » ، فانطلق من منطقة الجزيرة الخضراء[٨] بزحفه الى ما حولها[٩] وقد اتت خطته ثمارها منذ البداية ، حيث اشتبك جيشه مع فرقة أسبانية[١٠] كانت تجوس قرب الجزيرة الخضراء ، ولا ريب فقد استطاع الجيش العربي ان يسحق هذه الفرقة وذلك بفضل التنفيذ الدقيق للخطة التي من تفصيلاتها كذلك قيام عبدالملك بن ابي عامر المعافري أحد القادة العرب ، بالزحف ازاء الساحل الى الشمال وضرب الطوق العسكري على قرية حصينة تعرف بـ « قرطاجنة الجزيرة »[١١] تقع في مداخل خليج جبل طارق ، بأمر طارق بن زياد وتوجيهاته ، حيث زحف هذا الأخير بعدئذ غرباً وأتم استيلاءه على جميع مناطق قرطاجنة واقام هناك قاعدة عسكرية ثابتة في موضع يقابل الجزيرة الخضراء[١٢] .

وكانت الجزيرة الخضراء ومنطقتها يتولاها « تدمير » وهو احد ولاة لوذريق حاكم اسبانيا ، فيذكر مؤرخ الاندلس ابن حبيب، انه ابلغ لوذريق حال نزول العرب الجزيرة[١٣] او ان حكام الولايات

المجاورة بادروا بأخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم[١٤] ، غير ان الرازي ، يذكر ان « بلياس » ـ احد الجند القوط التابع للفرقة الاسبانية التي اشتبكت مع الكتائب العربية بقيادة طارق بن زياد ، وهو الوحيد الذي كان قد نجا من قبضة العرب ـ اسرع الى لوذريق في اقصى الشمال الأسباني عند بنبلونه وانبأه بخبر نزول العرب الاندلس ، وتذكر المصادر ان الجيوش التي استجمعها القوط الغربيون بلغت مائة الف بين فرسان ومشاة[١٥] ويقدرها مؤرخ اندلسي متأخر بتسعين الفاً[١٦] وقيل سبعين الفاً[١٧] ويجعلها ابن خلدون اربعين الفاً[١٨] وعلى الرغم من ان هذه التقديرات فيها مبالغة فان عدة جيوشهم كانت تزيد على عدة جيوش طارق بن زياد اضعافاً كثيرة وان عدد الفرسان فيها كان عظيماً[١٩] .

وعلى هذا الاساس ولكي يضع طارق بن زياد اطاراً جديداً لخططه العسكرية ينطلق منها لمواجهة العدو ، بعث برسالته الى موسى بن نصير يستحثه على النجدة ويستمده بالرجال والسلاح ويشير الى كثافة جيوشهم[٢٠] التي اعدوها ، فتعجل موسى بن نصير بتجريد المدد فكانت القوات التي عبرت تحت قيادة طريف بن مالك النخعي[٢١] تقدر بخمسة آلاف مقاتل اغلبهم من الفرسان « وبها كملت عدة من مع طارق اثني عشر الفاً ، اقوياء على المغانم حراصا على اللقاء »[٢٢] .

ويتبين من ذلك انه على الرغم من تفوق الجيوش القوطية في العدة والعدد حيث بلغت اضعاف الكتائب العربية ، وان هذه الأخيرة تقاتل في مناطق مجهولة اغلبها مناطق هضبية ومفاوز شاقة ،

غير انها اثبتت تفوقها ؛ فقد تقدم قائدها طارق بن زياد الى الموقعة الحاسمة بعزم وثبات يقتفي اثره رجاله وقادته الميدانيون ليحرزوا النصر في اول لقاء مع الجيوش والعساكر القوطية الكثيفة •

لقد كان اللقاء المثير بين الطرفين في سهل « الفرتيره » Frontera الواقع على ضفاف الوادي الذي يسميه ابن القوطية « بكه »[٢٣] وابن عذاري والحميري والمقري « لكـه »[٢٤] • ولكن هناك اختلافات في تحديد نقطة هذا اللقاء والنهر الذي يحمل هذا الاسم ، فقد ذكرت الروايات العربية انه نهر « جواداليتي » Guadalete الذي يصب في خليج قاديس في الشمال الغربي لاسبانيا وعلى مقربة من مدينة « شريش »[٢٥] فيما تذهب بعض الروايات الأخرى الى ان اللقاء كان جنوبي بحيرة « خاندا » Janda الصغيرة المتصلة بنهر بارباتي Barbate الصغير الذي يصب في المحيط على مقربة من « رأس طرف الغار »[٢٦] •

ويبدو ، ان لوذريق لم يشأ ان ينتظر العرب في السهول المحيطة بقرطبة بل ضرب معسكره عند مشارف مدينة شذونه حيث قرية فيخيردي لافروتيره التي هي نفسها سهل الفرتيره المار ذكره في المصادر العربية ، اما طارق بن زياد فقد اوعز الى قواته بالتحرك صوب مناطق قرطبة التي تركتها القوات القوطية وكانت خطته تقضي بالانتشار في السهل المنفسح الحصين الذي يقع بين بحيرة خاندا وجبال سيرادلرتين ، وقد استمر في تقدمه حتى ادرك نهر البرباط الذي يخترق بحيرة خاندا ، وهو نفسه وادي بكه[٢٧] •

ويساورنا الشك فيما جاء به ابن القوطية القرطبي عن انضمام اعداد كبيرة من القوط وعلى رأسهم « اولاد غيطشة ، المند وابـه وارطباس ، حيث عوّلوا على خيانة لوذريق والغدر به في اللحظـة المناسبة فيتركونه يلقى مصيره على ما فعل بغيطشـة »[٢٨] حتى ان سافدرا يقرر ان عدة جيش طارق بن زياد بلغت قبل المعركة خمسة وعشرين الفاً ، بسبب من انضم اليه من انصار غيطشـة واعـداء لوذريق ومن اهل اسبانيا[٢٩] غير اننا لانشك في ان عدداً يسيراً من القوط انضموا الى جيش طارق بن زياد وهذا ما أشرنا اليه سابقاً في هذا الكتاب . ويناقش الدكتور حسين مؤنس ما جاء به سافدرا بعد اطلاعه على المصادر القشتالية ، من ان عدة جيش طارق بن زياد بلغت قبل حدوث الاشـتباك الاول مع القوط الغربيـين خمسـة وعشرين الفاً ، بسبب من انضم اليه من انصار غيطشـة واعـداء لوذريق ومن اهل البلاد ، اي ان من انضم الى هـذا الجيش كان ثلاثة عشر الفاً ، وهو اكثر من الجيش نفسه الذي بلغ اثني عشر الفاً وهذا أمر مستبعد كما يقول هذا الباحث ، لكنه يستدرك ، انه من الممكن القول بانضمام بضعة آلاف من القوط واهل البلاد الى جيش طارق بن زياد[٣٠] وهنا يحق لنا ان نشكك مرة أخرى بما أقـره الدكتور حسين مؤنس في الفقرة الاخيرة من مناقشته ، اذ لو صح هذا الاستنتاج لما أقدم طارق بن زياد على طلب الاغاثة والاستمداد على وجه السرعة لمواجهة العدو كما اشارت الى ذلك الكثـير من المصادر العربية والافرنجية .

اما صاحب اخبار مجموعة ، فيقـدم لنا تفصيلات عن هـذا الموضوع غير انها متناقضة حيث يشير الى ان جيش لوذريق قـد

ضم خيار اعاجم الاندلس وابناء ملوكها ، ولما وقفوا على قوة الجيش العربي وايقنوا عدتهم ، اتفقوا على الخروج من جيش لوذريق ، ويمضي قائلاً : ان لوذريق كان قد ولى ششبرت ميمنة جيشه وآبه ميسرته وهما ابنا الملك غيطشة[٣١] ، ثم يقول عند التقاء الطرفين بموضع يقال له البحيرة فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت الميمنة والميسرة ، وانهزم بهم ششبرت وابه ابنا غيطشة »[٣٢] لكن ابن القوطية يقول ان ششبرت وآبه هما أخوا لوذريق وليسا ولديه[٣٣] .

وعلى الرغم من اجماع المصادر على القول بخيانة ابناء غيطشة لمليكهم او نفر كبير من القوط ممن كانوا غضاباً على لوذريق ، فان هذا الأمر لا يشكل اية أهمية او يترك اثراً على الخطة العسكرية التي وضعها طارق بن زياد بالاعتماد الاساس على قواه الذاتية ، فلو ان جيشه تلقى فعلاً هذه الاعداد الهائلة التي ذكرها المؤرخون لانتفت الحاجة الى الامدادات من الجند الذين طلب طارق بن زياد استمدادهم وقد وصفوا بالقوة والحرص على الطاعة ولقاء الاعداء ، لتوافيه من المغرب ، فضلاً عن استقدام طارق بن زياد نفراً من السودان بين يدي جيشه قاموا بدور خطير جداً في العمليات العسكرية للدخول الى المدن والمعاقل الاندلسية[٣٤] .

هوامش الفصل الرابع :

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٥ ، ١٨ ؛ محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ص ٥١ .
(٢) وهي كورة متصلة بكورة موورور في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الايبيرية الى الشمال الغربي من الجزيرة الخضراء (المقري ، نفح الطيب ج ١ ص ١٤١) .
(٣) اخبار مجموعة ص ١٥ .
(٤) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٣٥ .
(٥) يعقد الدكتور حسين مؤنس مقارنة بقوله : ان طارف بن زياد لم يفعل كما عاد عبدالله بن ابي سرح الى مصر بعد ان انتصر في مدينة سبيطلة في المغرب فاستنتج ان الاول كان ابعد نظراً من عبدالله بن ابي سرح (فجر الاندلس ص ٧٦) .
(٦) كما جاء في المقري ، نفح الطيب ج ١ ص ١٦٤ .
(٧) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠ .
(٨) يذكر المراكشي ، انها موضع مدينة معروفة نزل بها طارق بن زياد (المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص ٣٣) .
(٩) يورد ابن الكردبوس روايته فيما يتعلق بابحار طارق بن زياد عبر زقاق البحر (مضيق جبل طارق) الى الاندلس ، فلم يجد ما يلائمه لنزول عسكره وخاصة عندما شعر بوجود جماعة من القوط ربما تتصدى له ، فابحر ليلا واستكان الى شاطىء وعر ، وكانت المجازيف والبراذع (خيول الاحمال) قد القيت على هذا الشاطىء الصخري لتسهيل عملية النزول (الاكتفاء في اخبار الخلفاء ــ تحقيق د . احمد مختار العبادي ، مدريد ــ ١٩٧١) ص ٤٦ وهناك رواية ابن عذاري ، عن العبور ونزول قوات طارق بن زياد على الجبل وربما نقلها عن المصدر الاول (البيان المغرب ج ٢ ص ٩) ويذهب عبدالواحد ذنون طه الى ان هذه العملية ربما استغرقت اكثر من ليلة واحدة بسبب قلة المراكب التي كانت مستمرة بنقل الرجال بين الشاطئين الى ان هبط كل افراد الحملة على الاراضي الاسبانية بسلام (تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس ص ٢٦) .

(١٠) وكان يقود هذه الفرقة « بنج » او « بنشو » او « بنشيو » وهو احد قادة القوط (الحميري ، وصف جزيرة الاندلس ص ٧٥ ؛ ابن عذاري ، المصدر السابق جـ ٢ ص ١١ . المقري ، المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٢) .

(١١) ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ٩ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١٣ ؛ انظر ايضاً : د . السيد عبدالعزيز سالم وهو يشير الى سافدرا بذكر هذا الموضع الذي يعرفه اليوم باسم « برج قرطاجنة » او « برج الروكاديو » (تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٧٣ هامش رقم (٢) .

(١٢) الحميري ، المصدر السابق ص ٧٤ .

(١٣) نص ابن حبيب (مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية (مدريد ، ص ٢٢٢) .

(١٤) قيل ان علجاً من اصحاب لوذريق قدم الى معسكر طارق بن زياد يتجسس عليه ويحزر عدد المسلمين ويعاين هيآتهم ومراكبهم ، واقبل هذا العلج الى لوذريق وقال له : « اتتك الصور التي كشف لك عنها التابوت فخذ لنفسك ، فقد جاءك منهم من لا يريد الا الموت او اصابة ما تحت قدميك قد حرقوا مراكبهم اياسا لانفسهم من التعلق بها وصفوا في السهل موطنين انفسهم على الثبات اذ ليس لهم في ارضنا مكان مهرب (المقري ، المصدر السابق ص ٢٤٢) هذه الرواية متاخرة نشك في صحتها وربما لها علاقة باسطورة « بيت الحكمة » التي اوردتها بعض المصادر ومفادها انه كان لملوك القوط بطليطلة بيت فيه تابوت وفيه الاناجيل الأربعة (وهي انجيل يوحنا وانجيل لوقا وانجيل متى) التي كانوا يقسمون بها كما كانوا يعظمون ذلك التابوت ويخشون فتحه وقد اقفل باقفال عدة وكان اذا تولى ملك منهم اضاف قفلا الى هذه الاقفال واذا مات كتب عليه اسمه ، فلما صار الملك الى لوذريق جعل التاج بدلا من اضافة القفل فانكروا ذلك عليه وقرر ان يفتح البيت والتابوت ننهي عن ذلك : لكنه أصر على فتحه فوجد فيه صور رجال متنكبة قسيها وعمائمها على رؤوسها وفي اسفل العيدان كتابة لم يفهمها احد . ولما جد لوذريق الى من يقراها كانت العبارة المكتوبة : « اذا فتح هذا

البيت واخرجت هـذه الصور دخل الاندلـس اصحاب قوم في صورهم وهم العـرب فغلبوا عليها » (ابن القوطية ، المصـدر السـابق ص٣٢ــ٣٣)؛ محمد عبدالله عنان، دولة الاسلام ص٤١ .

(١٥) اخبار مجموعة ص ٧ ؛ ويذكر الحميري مبالغـاً انهـم جمعوا جيشاً قوامـه (٦٠٠) الف فارس (الروض المعطـار في خبر الاقطار ص ١٠) .

(١٦) علي بن عبدالرحمن بن هذيل ، تحفـة الانفس وشـعار اهل الاندلس (مخطوطة بالاسكوريال اشار اليه الاستاذ محمد عبدالله عنان ، دولة الاسـلام في الاندلـس ص ٤٢ هامش رقم (٢) .

(١٧) نص ابن حبيب (مجلة المعهد المصري للدراسـات الاسلاميـة (مدريد ــ ص ٢٢٢) اشار اليه الدكتور السـيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٧٥ هامش رقم (٤) .

(١٨) العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١١٧ .

(١٩) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٧٢ .

(٢٠) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، كما ورد في كتاب ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٤٠ .

(٢١) الرازي كما جاء في المقري، نفح الطيب ص١٦٤ ؛ اخبار مجموعة ص ٧ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠ .

(٢٢) اخبار مجموعة ص ٧ ؛ المقري ، المصدر السابق ص ٢٤١ .

(٢٣) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٧ .

(٢٤) البيان المغرب جـ ١ ص ٢ ، ١٠ ؛ الروض المعطار في خبر الاقطار ص ١٦٩ ؛ نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣٣ . ثم انظر د . عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٧٦ هامش رقم (٣) .

(٢٥) محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام ص ٤٣ ، انظر الخارطة .

(٢٦) م.ن. ص ٤٢ هامش رقم (٣) ، ص ٤٣ الخارطة نفسها يقول : « ان الرواية العربية تقصد هذا النهر بما تورده من اسم وادي لكة او وادي بكة ، ففي هـذا السهل الصغـير الذي تحده من الجنوب سلـسلة من التلال العالية وعلى ضفاف بحيرة خنـدة ونهر بارباتي التقى الطرفان في معركة انتصر فيها العرب » .

(٢٧) م.ن. ص ٤٣ الخارطة نفسها .

(٢٨) حتى انه يقول : « ولوصوا في ليلتهم تلك على طارق يعلمونه ان لوذريق انما كان كلباً من كلاب ابيهم واتباعه ويسألونه الأمان

على ان يخرجوا اليه بالصباح » تاريخ افتتاح الاندلس ص ٢٨ ــ ٢٩ .

(٢٩) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٧٢ هامش رقم (١١) .

(٣٠) م.ن. الهامش نفسه .

(٣١) قال بعضهم لبعض : هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من اهله وانما كان من سفالنا ، وهؤلاء قوم (يقصد العرب) لا حاجة لهم بايطان بلدنا ، انما يريدون ان يملوا ايديهم ثم يخرجون عنا، فلنهزم بنا ابن الخبيثة اذا ألفينا القوم فاجمعوا لذلك (اخبار مجموعة ص ٧ ــ ٨) .

(٣٢) م.ن. ص ٨ ــ ٩ .

(٣٣) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٢٨ .

(٣٤) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٧٣ هامش رقم (٤) .

الفصل الخامس

الخطبة المنسوبة الى طارق بن زياد

زعم بعض مؤرخي العرب ، ان طارق بن زياد بعد ان عبر بجيشه الى الاندلس وقف بين جنده وخطب فيهم خطبته ذائعة الصيت[1] ، وعلى الرغم مما ورد في هذه الخطبة من معان وتعبيرات رفيعة والهاب للمشاعر والحماس من اجل الجهاد والحث على القتال فانه لا يصح اعتبارها حقيقة واقعة .

ان اقدم نص فيه اشارة الى هذه الخطبة هو ما أورده مؤرخ الاندلس عبدالملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م مع تنف منها على انها جميع ما خطب به في جنده ، وربما تمثل مقدمة للخطبة حيث قال : « فلما بلغ طارقاً دنوّه منه قام في اصحابه فحمد الله واثنى عليه ، ثم حض الناس على الجهاد ورغبهم في الشهادة ثم قال : « ايها الناس ، اين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو من امامكم ؟ فليس لكم والله الا الصدق والصبر الا واني صادم بنفسي لا اقصر حتى اخالطه او أقتل دونه »[2] ولكنه لم يذكر النص المطوّل الذي جاء به المقري ، مما يثير الشكوك في صحتها ويبعث على التساؤل في انطباق مفرداتها وفقراتها ومعانيها على طبيعة ذلك العصر (القرن الاول

الهجري) فلابد انها دُبجت بعيـداً عن حقبة هـذا المؤرخ الذي منذ ان وطىء العرب هذه البلاد ، كما عدّ واحداً من اكبر مؤرخيها . ولعله بهذا المعنى كان يشير الى ما تحدث به طارق بن زياد مع جنده قبل خوض المعركة شأنه شأن اي قائد ميداني في لقائه مع قواته قبل بدء العملية العسكرية ولكن جسامة مهمة فتح هذه البلاد وتحقيق ما كان يُعد بعيداً عن منال العـرب في الوصول اليهـا عبر البحر والمسافات الشاسعة التي تفصلها ، جعـل بعض مؤرخي العـرب المتأخرين ينصرفون الى وضع خطبة تتناسب في اعتقادهم وهـذا الحدث المهم في التاريخ العربي والاسلامي . ويتسـاءل الدكتور عبدالرحمن علي الحجي فيما اذا كانت الخطبـة مقحمة في نـص عبدالملك بن حبيب منقولة عن ابن خلكان او غيره ممن نقل عنهـم هذا الأخير أو من اضافة الناسخ الذي اختصر هذا النص ، خاصة وان المصادر المشرقية كانت معتمدة ، ويبدي هذا الباحث استغرابه لعدم ورودها عند غيره من كتاب الاندلـس الذين وصلت الينـا كتاباتهم ؟ ، وان تعـرض القليل جـداً من مؤرخينا الاندلسيـين المتأخرين ــ دون المتقدمين ــ للخطبة قد يشير الى عدم شيوعهـا والى جهل المؤرخين بها وهو أمر يقلل او يمحو الثقة بواقعيتها[٣] .

أما ابن هذيل الاندلسي ، وهو من اهل القرن الثامن الهجري ، فيذكر نصاً شبيهاً بنص عبدالملك بن حبيب مع بعـض اختـلاف فيقول : « ... فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام يعظهـم ويحضهـم على الصبر ويرغبهـم في الشهادة ، وبسط في آمالهم ثم قال : « اين المفر ؟ البحر من ورائكم

والعدو امامكم فليس لكم والله الا الصبر منكم والنصر من ربكم ، وانا فاعل شيئاً فافعلوا كفعلي ، والله لاقصدن طاغيتهم فاما ان أقتله واما ان اقتل دونه »[٤] .

ومن المشارقة الذين وردت لديهم الخطبة المنسوبة الى طارق بن زياد فيما عدا ابن خلكان الذي نقل نصها كاملاً ، هو ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م فقد اشار الى انه لما بلغ طارقاً دنوه منهم قام في اصحابه ، فحمد الله واثنى عليه وحض الناس على الجهاد ورغبهم في الشهادة وبسط لهم في آمالهم ثم قال : « ايها الناس ، الى اين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، فليس والله الا الصدق والصبر فانهما لا يغلبان ، وهما جندان منصوران لا تضر معهما قلة ولا ينفع معهما الخور والكسل والاختلاف والفشل والعجب كثرة ؛ ايها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، ان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا وكونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، واني صامد الى طاغيتهم لا اتهيه حتى اخالطه أو اقتل دونه ، فلا تهنوا ولا تنازعوا ان قتلت فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الأدبار لعدوكم فتبيدوا بين قتيل ومأسور ، واياكم اياكم ان ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم ما قد عجل لكم من الكرامة والراحة من المهانة والذلة وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة فانكم ان تفعلوا والله معيذكم تبوؤوا بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين ، وها أنا ذا حتى اغشاه ، فاحملوا بحملتي وأنا غير مقصود دونه »[٥] .

وربما يكون من المفيد ان نعود الى ابن خلكان الذي نقل حرفيات الخطبة عن مصدر لا يذكره ثم اخذها عنه المقري كما

اوضحنا سابقاً ، فأورد لنا نصاً « منقحاً ومشذباً » عما كان يتناقله المؤرخون والكتاب في تآليفهم ومصنفاتهم خلال عصره من اخبار تتعلق بالاطار البنائي والادبي للخطبة دون مناقشتها وتحليلها . والمقري يذكر كذلك ، ان طارق ابن زياد سبق خطبته بكلام غيرها في جنده فقد « قام في اصحابه فحمد الله واثنى عليه بما هو أهله ثم حثّ المسلمين على الجهاد ورغبهم »(٦) .

اما ما جاء في الخطبة من سجع وصياغة لفظية فليس من اسلوب القرن الاول الهجري ، كما ان اغلب فقراتها لا تتلاءم والروح الاسلامية العالية التي تميز بها الفاتحون الاوائل من امثال طارق بن زياد ، فضلاً عن عدم اشادتها بدوافع الفتح واهدافه التي ابتغتها ورعتها العقيدة الاسلامية(٧) الى جانب ما جاء في الخطبة من التناقض في المعاني ومن مخالفتها لحقائق تاريخية(٨) ثم انه كان من المتوقع ان تحتوي على آيات من القرآن الكريم واحاديث الرسول (ص) او وصايا واحاديث ومعاني اسلامية تناسب المقام(٩) ، كما ان اكثر جند طارق بن زياد لم تكن لغتهم العربية قد وصلت الى مستوى عال مما عليه الخطبة فهم حديثو العهد بالاسلام والعربية ، ولاسيما ان العربية هي أبطأ في الانتشار من الاسلام(١٠) .

وفضلاً عن ذلك ، انه ليس من المعقول ان يبلغ بطارق بن زياد القول : « .. ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم اليه » كما جاء في اصل النص الذي اورده المقري نقلاً عن ابن خلكان ، وان تحتوي على التناقض وخاصة ما ورد في آخرها بقوله : « .. واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا اليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله

فانه بعده يخذلون » فهذا يتنافى مع اسلوب الفتح وحقيقة اهدافه ، فضلاً عن مجانبتها لخططه العسكرية ودقتها التنظيمية ومتطلباتها الفنية(١١) .

ولعل واضعي الخطبة ومدبجيها الاوائل ومن نقلها عنهم من المؤرخين والكتاب ومن زاد عليها او حذف منها كانوا يحاولون استلهام التاريخ الانساني عموماً والتاريخ العربي(١٢) خاصة عن خطب القادة العسكريين الميدانيين التي كانت تسبق المعارك الحاسمة والمصيرية ، فوضعوا لطارق بن زياد خطبة تتناسب ومكانة الانتصارات التي تلت نزوله مع قواته الى الاندلس وحصول اول اشتباك مع القوط الغربيين في معركة وادي لكه الشهيرة(١٣) .

ولا يميل الاستاذ محمد عبدالله عنان الى تصديق الخطاب المنسوب الى طارق بن زياد ويشكك في صحة هذه الرواية(١٤) وهو ينقل نصاً فيه اختلاف عن النص الذي جاء به المقري نقلاً عن ابن خلكان وخاصة في فقراته الأخيرة حيث يقول : « .. ايها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، ان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال واني عامد الى طاغيتهم بحيث لا انهيه حتى اخالطه وامثل دونه ، فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل واسير ، اياكم اياكم ان ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة وما قد حل لكم من ثواب الشهادة فانكم ان تفعلوا والله معكم ومفيدكم ، تبوؤوا بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين وها أنذا حامل حتى اغشاه فاحملوا بحملتي »(١٥) .

لقد درج بعض المؤرخين والكتاب والنساخ ان تكون ديباجتهم للخطبة تؤدي المعنى نفسه في الحث على القتال والحفاظ على الوحدة لخوض غماره والصمود فيه ومواصلته واذكاء الهمم والجهاد وثواب الشهادة في سبيل الاسلام ومبادئه ، وتبدوا انها وضعت بأسلوب الكتاب المتأخرين المبسط من حيث بيان القصد ، لكنها ظهرت أقل فصاحة في التعبيرات الأدبية الرفيعة .

وعلى الرغم من اشادة مجمل الروايات العربية الاسلامية بهذه الخطبة وتنويهها بما كان لها من أثر في اذكاء شجاعة الجند وتمتين الثقة الراسخة بانفسهم لتحقيق الانتصار والظفر بهذه البلاد ، فاننا نرتاب في نسبتها الى فاتح الاندلس لان معظم المؤرخين العرب الاوائل لا يشيرون اليها فلم يذكرها ابن عبدالحكم مثلاً ولا البلاذري وهما أقدم رواة الفتوحات العربية الاسلامية ، كما لم يتطرق اليها ابن الأثير وابن خلدون وحتى المقري فلا يصرح بالقول عمن نقلها ، وهي اكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والادباء المتأخرين(١٦) .

هوامش الفصل الخامس :

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٢٢١ – ٢٢٢ نقلها عنه المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٠ – ٢٤١ .
(٢) الفقرة التي نشرها الدكتور عبدالرحمن علي الحجي في كتابه ، التاريخ الاندلسي ص ٥٩ وقد نقلها عن مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، جـ ٥ ص ٢٢٢ ، (القسم الفرنجي) .
(٣) التاريخ الاندلسي ص ٩٥ .
(٤) تحفة الانفس وشعار اهل الاندلس (النسخة المخطوطة التي نشرها مصورة لويس مرسيبه (باريس – ١٩٣٢) ص ٧٠–٧١ . القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٣٨ – ١٣٩ .
(٥) الامامة والسياسة (المنسوب اليه) (نشر ضمن كتاب ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٣٨ – ١٣٩ .
(٦) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٠ .
(٧) د . عبدالرحمن علي الحجي ، المصدر السابق ص ٦٠ .
(٨) ويمنها اقحام كلمة « اليونان » في حين ان المؤرخين الاندلسيين اعتادوا كلمة « القوط » او « الروم » انظر مثلا : لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة جـ ١ ص ١٠٠ ؛ المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٩ وكذلك اصطلاح « العلوج والعجم او المشركين والكفار » فليس هناك نص يرجع الى القرن الاول الهجري فيه مثل هذه الاصطلاحات، انظر مثلا ابن عذاري، البيان المغرب جـ ٢ ص ١٤ ؛ المقري ، المصدر السابق ص ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ . اما ابن خلكان فقد ذكرها في نصوص اخرى (وفيات الاعيان جـ ٥ ص ٢٢٣ – ٢٢٤ ، ٣٢٧ – ٣٢٨) ؛ المقري ، المصدر السابق ص ٢٤٤ .
(٩) د . عبدالرحمن علي الحجي ، المصدر السابق ص ٦٠ – ٦١ .
(١٠) د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٧٨ .
(١١) د . عبدالرحمن الحجي، المصدر السابق ص ٦١ .
(١٢) لدينا نماذج منها في التاريخ العربي ، فعندما غزا الاحباش اليمن بعد عبورهم البحر وتصدت لهم جيوش الدولة الحميرية الكثيفة خطب ارباط قائد الجيش الحبشي في جنده قائلا : يا معشر الحبشة قد علمتم انكم لن ترجعوا الى بلادكم ابداً ، هذا

البحر بين ايديكم ان دخلتموه غرقتم وان سلكتم البر هلكتم واتخذتكم العرب عبيداً وليس لكم الا الصبر حتى تموتوا او تقتلوا عدوكم (جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ص ١٤٨)
كذلك اورد الطبري ان سيف بن ذي يزن خطب في عسكره الذي ذهب لتحرير اليمن من الاحباش بعد ان احرق سفنه قائلا :
« ليس امامكم الا احدى اثنتين اما القتال بشجاعة حتى الظفر واما الاستكانة والتخاذل وحينذاك يلحقكم العار والخزي العظيم (تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ١١٩) .
(١٣) واعتبار ان هذه المعركة هي التي وضعت الاساس لانتصارات طارق بن زياد اللاحقة ، فلابد ، حسب زعمهم ، انه خطب في جنده ليزيد في حماستهم واندفاعهم وهذا ما حصل فعلا ، فقد حققوا الانتصار على قوات القوط التي هي اكثر منهم عدة وعدداً .
(١٤) دولة الاسلام في الاندلس ص ٤٨ .
(١٥) م.ن. ص ٤٧ .
(١٦) محمد عبدالله عنان ، المصدر السابق ص ٤٧ .

الفصل السادس

واقعة حرق السفن المنسوبة الى طارق بن زياد

وهناك واقعة ترتبط بالخطبة التي نسبت الى فاتح الاندلس وهي ما جاء عما نسب اليه بشأن احراق السفن التي عبر بها مع جنده من الشاطيء الافريقي الى شواطيء شبه جزيرة ايبريا ، ولعل هذه الواقعة يغلب عليها لون الاسطورة وان كانت مع ذلك تعرض في ثوب التاريخ الحق[1] • والسؤال الذي ينبغي الاجابة عنه ، هل حقاً ان طارق بن زياد قد احرق السفن التي أقلته عبر المضيق ، كي يقطع على الجيش كل أمل في العودة الى افريقية ؟ وليدفعهم الى الاستبسال في القتال وليستميتهم في الاندفاع الى الأمام ؟ •

والمعروف ان المصادر الاندلسية لا تشير اليها وتكاد المصادر الأخرى تخلو من اية معلومات عنها فيما عدا الشريف الادريسي الذي كتب جغرافيته سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م فقد ذكر ان طارق بن زياد أحرق سفنه بعد العبور بجيشه الى الاندلس[2] ، ويبدو على اغلب الاحتمال ان بعض المؤرخين المتأخرين نقلوا هذه الرواية عنه وان قسماً منهم اضاف عليها او كتبها بشكل آخر •

ومن الجدير بالذكر ، ان هذه السفن التي اشار الادريسي الى قيام طارق بن زياد بحرقها ، نسبت بعض المصادر ملكيتها الى يوليان حاكم سبتة قدمها الى طارق بن زياد ضمن مساعدته للعرب على فتح الاندلس ، فهل يمكن لهذا القائد ان يتصرف بها ؟ وعندئـذ يبدو وكأنه قام بعمل عسكري غير سليم يتنافى مع خططه العسكرية التي وضعها ، حيث سيؤدي الى قطع خط امداداته واتصالاته مع بلاد المغرب التي اكدت الاحداث والوقائع ، انه كان دائم الحاجة اليها للاستمداد والنجدة بالرجال والسلاح والمؤن او لأي غرض كان . ويذهب الدكتور عبدالرحمن علي الحجي الى القول موضحاً ، ان الدوافع التي كانت تحرك طارق بن زياد والاهداف التي يسعى جيشه لتحقيقها هي اقوى في الاندفاع من اي سبب كان(٣) بل ويمكن القول بانها كانت اسمى منه ، فهي تتعلق بقوة العقيدة الاسلامية وبالمثل والمبادىء التي كان يحملها العرب الى البلاد المفتوحة . اما الاستاذ محمد عبدالله عنان فلا يستبعد رواية الشريف الادريسي عن واقعة احراق السفن ويقول بأنها ليست من الأمور المستحيلة وهي عمل بطولة تتفق مع بطولة فاتح الاندلس ، حيث ان في الخطاب المنسوب الى طارق بن زياد ما يؤيد صحة هذه الرواية فهو يستهله بقوله : « .. ايها الناس ، اين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ... » وفي ذلك ما يمكن ان يحمل على ان الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة الى الشاطىء الأفريقي ، أو بعبارة اخرى قد جرد من السفن التي حملته في عرض البحر الى اسبانيا ، وعلى الرغم من ان هذا الخطاب لايمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية

كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب ، فانه لو صح ان طارق بن زياد القى في جنده مثل ذلك الخطاب ، فقد نجد تفسيراً لاقواله في ان السفن كانت ملكاً للكونت يوليان وفي انها لم تكن تحت تصرف العرب في جميع الاوقات ، ولذلك فان هذا الباحث لا يجزم بصحة هذه الواقعة ولا يميل الى التصديق التام بها ، فيقول ان هذه الرواية تبقى عرضة لكثير من الريب ، فقد دونت لاول مرة في القرن الخامس الهجري ، اي بعد فتح الاندلس باكثر من ثلاثة قرون ، ولم تؤيدها اية رواية أخرى(٤) •

ولعل من غير المعقول ان تترك الاخبار المتصلة بواقعة حرق السفن التي هي نفسها منسوبة الى طارق بن زياد ، أثر فيما اقدم عليه المكتشف الاسباني « هرناندو كورتيث » فاتح المكسيك سنة ٩٢٦هـ/١٥١٩م عندما أحرق سفنه التي قدم عليها جيشه من اسبانيا حالما اشرف على شواطىء المكسيك لكي يقطع على جنده كل تفكير في الرجعة والارتداد(٥) ، اذ لا يمكن ان نعد هذا العمل تأثراً بالمثل الذي نسب الى طارق بن زياد فاتح الاندلس بسبب انتساب هذا المكتشف الى اسبانيا وانطلاقه منها ، ولكن ربما يكون من الجائز ، الاعتقاد ان المصادر نسبت هي الاخرى للمكتشف الاسباني هرناندو كورتيث ، اقدامه على حرق السفن تشبهاً بما شاع عن هذه الحادثة او سواها ، لان مثل هذه القصص والحكايات كانت شائعة ليس فقط في التاريخ العربي وانما في التاريخ الانساني عموماً ومنذ اقدم العصور •

ومهما يكن من أمر موضوع عملية حرق السفن ، فان الاستنتاج المفيد يجب ان يتركز حول ما اذا كانت هذه العملية تخدم بشكل او

بآخر خطة تقدم الجيش العربي الاسلامي في بلاد الاندلس ، وفيما اذا كانت تشكل مثلاً للخطط والموضوعات العسكرية الصحيحة والمعتمدة في خطط القادة العسكريين في التاريخ العربي ، بل ولجميع القادة الميدانيين الذين برزوا في التاريخ العسكري والحربي منذ أقدم الأزمنة وحتى العصور الحديثة ؟ وواضح انها ليست كذلك ، لان تقدم الجيش الذي كان يقوده طارق بن زياد في ضوء الخطط العسكرية في سهول الاندلس وجبالها ، لا يعتمد على التحذيرات والانذارات التي يؤمل ان تستخلص من هذه العملية لان جيش طارق بن زياد كان متمرساً ومحط آمال القائد موسى بن نصير ، كما ان طارق بن زياد وضع في صميم خططه استخدام السفن لنقل جيشه عبر المضيق سواء تلك التي كان يمتلكها او التي قدمت اليه من الاسبان او حتى سفن التجار الذين كانوا يختلفون للتجارة ونقلها في بحر الروم (المتوسط) .

هوامش الفصل السادس :

(١) م.ن. ص ٤٨ .

(٢) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ١٧٨ ، ولكنه لم يقدم لنا تفصيلات مهمة عنها او يذكر نصها كاملا او جزئيا ؛ وربما اعتمد بعض المؤرخين على هذا الخبر الذي اورده الادريسي فانشاوا اطارا للخطبة ووضعوا عباراتها بموجبه .

(٣) التاريخ الاندلسي ص ٦٢ .

(٤) محمد عبدالله عنان ، المصدر السابق ص ٤٩ .

(٥) كما يظن الاستاذ محمد عبدالله عنان ، اذ يقول ان المكتشف الاسباني هرناندو كورتيث مثلا بديعا للفاتح الذي يحرق ، وهو يستغرب ان يكون بطل هذا الحادث اسبانيا حيث تأثر في عمله بالمثل الذي ينسب الى طارق بن زياد فاتح الاندلس ، والباحث يوحي ان حادثة حرق السفن التي نسبت الى طارق بن زياد وكأنها في اطار الحقيقة التاريخية (م.ن ص ٤٩ هامش رقم (١))

الفصل السابع

العمليات العسكرية ووقائع الفتح

اما ما اتخذه طارق بن زياد من اجراءات لاتمام خططه في استكمال عملية فتح هذه البلاد فيتمثل في المعركة التي خاضها مع الاسبان سنة ٩٢هـ/٧١١م بعد مضي (٨٣) يوماً من نزوله جبل « الفتح »[١] على وادي نهر الرباط[٢] او وادي « لكه »[٣] او وادي « بكه »[٤] او وادي « الطين »[٥] القريب من مدينة « شذونة » .

ويذكر صاحب اخبار مجموعة ، ان طارق بن زياد ، التقى لوذريق بالجزيرة بموضع يقال له « البحيرة »[٦] ، وقد فرق النهر بين الجيشين مدى ثلاثة أيام شغلت بالمناوشات بين الطرفين ، ولكن في اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة فاصلة ، ويشير الرازي الى ان المعركة دامت ما يقرب من ثمانية أيام ، انتهت بهزيمة القوط هزيمة منكرة[٧] . فلم تنفع محاولات لوذريق الظهور امام جيشه في حلله الملوكية وجلوسه فوق عرش تجره الخيل المطهمة ذات السروج المكللة بالدر والياقوت والزبرجد[٨] ، وقد اثار هذا المنظر ،

سخرية المؤرخين الغربيين وتهكمهم وخاصة كيبون[٩] ، كما اشارت الى ذلك معظم الروايات العربية ، فيذكر الطبري نقلاً عن الواقدي قائلاً : « فزحف الادرينوق في سرير الملك ، وعلى الادرينوق تاجه وقفازه وجميع الحلة التي كان يلبسهـا الملوك[١٠] » وكذلك ابن الاثير[١١] وابن عذاري[١٢] .

وتصوّر لنا المصادر المعاصرة ، ان جيش القوط الغربيين الذي كان يقوده لوذريق مختل النظام منحل العرى وذلك على الرغم من كثرته ، حيث استطاع الجيش العربي ان يضطره الى تراجع جناحيه وفقاً للخطة التي رسمها طارق بن زياد ونكص عدد كبير من قواد الملك القوطي فانكشف قلبه وانهار خط دفاعه من اساسه[١٣] .

ويشير صاحب اخبار مجموعة الى انهم « اقتتلوا قتالاً شديداً فانهزمت الميمنة والميسرة ، انهزم بهم ششبرت وآبه ابنا غيطشة ثم قاتل القلب شيا من قتال ثم انهزم لوذريق »[١٤] وكان يقود جناحيه المنهارين « أيقا وسـيزبوت » وهما خصما لوذريق ، وتكـونت صفوفه من اتباعهما وأنصار حلفائهما من الأمراء والزعماء والناقمين الذين تظاهروا بالاخلاص ، غير انهم كانوا يتحينون الفرص للايقاع بالملك المغتصب[١٥] ، ويعتقد الاسـتاذ محمد عبداللـه عنان : ان استمالة يوليان والاسقف اوباس الكثير من الجند القوط كان لها تأثير في الشقاق والتفرقة التي سادت في الصفوف الموالية للوذريق حيث بثـا بدعاياتهمـا في هـذا المجال مما له نتائـج مهمة علـى المعركة بين العرب والقوط[١٦] .

وكانت الخطة المرسومة للجيش العربي ، تقضي بسحق القوات التي عبأها القوط لمدافعة طارق بن زياد ، فشتتوا ألوفاً في كل صوب واذرعوا في فلولهم بالقتل ولم يرفعوا عنهم السيف ثلاثة ايام[١٧] ، وذلك على الرغم من ان فرسان القوط اظهروا قدرتهم في بداية المعركة وثبتوا لضغوط الجيش العربي بجميع عناصره ، ولكنهم خذلوا في النهاية فخسروا خيولهم حيث غنمها العرب « ولم يبق منهم احد دون فرس فأصبح الجيش كله خيالة »[١٨] .

اما لوذريق ، فلم يعثر له على اثر ، وقد اختلف المؤرخون حول ذلك فذكر فريق منهم ، ان لوذريق قتل غريقاً في وادي نهر لكة[١٩] فيما اكد آخرون انه قد رمى بنفسه في هذا الوادي وغاب شخصه[٢٠] ، اما المقري فيذهب الى القول ، ان طارق بن زياد ، لما رأى لوذريق بهيئته قال : « هذا طاغية القوم فحمل وحمل اصحابه معه فتفرقت المقاتلة من بين يدي لوذريق فخلص اليه طارق ، فضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره »[٢١] . وتزعم المصادر الغربية ان لوذريق ، استطاع ان يلوذ بالفرار ولكنه قتل بعد ذلك او انه فر الى بعض الأديار في البرتغال وترهب وعاش متنكراً حيناً من الدهر[٢٢] . اما ابن قتيبة فينفرد بين المشارقة برواية مفادها ، ان طارق بن زياد ظفر بلوذريق قتيلاً فأخبر موسى بن نصير بهذا الأمر ، واطلع هذا الأخير بدوره الخليفة في دمشق على ذلك[٢٣] . ويبدو انه قد حصل هنالك خلط لدى المؤرخين فيما يتعلق بمصير لوذريق في هذه المعركة ، حيث استطاع النجاة بنفسه بعد ان تجرد من خفيه ومن ثيابه الدالة عليه[٢٤] مما جعل بعض المؤرخين والكتاب في الوقت الحاضر يقعون في خطأ واضح فيميلون الى تصديق

الروايات التي تذهب الى ان لوذريق فقد حياته في هذه الموقعة وانه مات قتيلاً او غريقاً على الأثر[٢٥] ، او ان بعضهم الآخر أخذ هذه الروايات واعتمدها في كتاباته لكي يقلل من شأن النتائج التي ترتبت عليها هذه المعركة الحاسمة لصالح الجيش العربي الاسلامي وقائده طارق بن زياد ، فيقول ايزدور الباجي ان « لوذريق بقي في ميدان الحرب حتى قتل مدافعاً عن عرشه وامته »[٢٦] .

ولعل من المفيد ان نذكر هنا كيف ان طارق بن زياد ، قد انتزع النصر في هذه المعركة التي وضعت الاساس المتين للوجود العربي في الاندلس ، وارست دعائم سلطة الدولة العربية الاسلامية ، كما اصبحت بداية قوية للزحف داخل هذه البلاد ونقطة انطلاق الى مواقعها ومراكزها الأخرى ، فضلا عن ان هذا الانتصار ، قد أحدث دوياً في العالم الاسلامي ، فلم تكد الاخبار تصل الى المغرب حتى اقبل الناس نحو الاندلس من كل وجه « وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر فلحقوا بطارق »[٢٧] ويذكر الرازي بهذا الصدد ، تهافت اهل العدوة من العرب والبربر على الاندلس بعد الموقعة « واقبلوا على الفتح بقلوب مجبورة »[٢٨] ويعلل بعض الباحثين التضخم الذي وصل اليه الجيش العربي الاسلامي ، عقب معركة وادي لكة ، بسبب ما انضم اليه من متطوعي المغرب ، حتى اصبح فيالق لجبة مما اضطر طارق بن زياد الى تنظيمها في فرق وسرايا وكتائب ، امضاها في بعوث الى النواحي ، لتطبق على العدو فتشل مقاومته .

ولكي يجني طارق بن زياد ثمار انتصاراته بعد معركة وادي لكة، افصح عن خطته العسكرية المقبلة والقاضية بالزحف نحو المدن

والمراكز الاندلسية ، فبدأها بمدينة شذونة Sidonia حيث ضرب حولها الحصار وشدد في الدخول اليها ، وعلى الرغم من امتناعهـا عليه في البداية ، فانه جدّ في تحطيم بعض الثغرات في سورها ، وانتشر فيها جنده واحكم سيطرته عليها[٢٩] ثم اتجه الى مدينـة « مورور »[٣٠] Moror في طريقه الى « قرمونة » Garmona وكانت من اكبر معاقل الاندلس واكثرها منعة وتسويراً[٣١] ، وبعد انجاز مهمته في هاتين المدينتين وتحريرهما ، مضى الى «اشبيلية»

اعظم قواعد الاندلس فحاصرها شهراً فاستسلمت[٣٢] صلحاً وكتبت الشروط ودخلها مع عسكره . وتذكر المصادر ، ان اهل اشبيليـة اتصلوا بطارق بن زياد وطلبوا الصلح على الجزية[٣٣] وبعد ان أتم بالعنوة والصلح زحف نحو مدينة مارده وضرب حولهـا الطوق ووضع نهاية لها بالتسليم على الرغم مما تعرض له بعض جنده من كمين تحت اسوارها فقتلوا أو أسروا[٣٤] .

غير ان اهم مركز للمقاومة القوطية ، تجمعت فيه فلول جيوشهم وعناصر مقاومتهم هو مدينة « استجة Ecija » حيث دارت رحى معركة رهيبة بين الطرفين هزم فيها الجيش القوطي[٣٥] واندحرت كتائب المقاومة امام ضربات الجيش العربي الاسلامي بعد ان « كثر القتل والجراح وامتنعوا داخل مدينتهم واقاموا على الامتناع الى ان ظفر طارق بصاحب المدينـة فأرغمه على الصلح وفـرض عليه الجزية »[٣٦] .

والظاهر ان فلول القوط وذوي القوة منهم واصحاب النفوذ والسلطة بدأوا يجدون السير للوصول الى « دار مملكتهم طليطلة »[٣٧] بعد ان « قذف الله الرعب في قلوبهم لما رأوا طارقاً يوغل في البلاد ، وكانوا يحسبونه راغباً في الغنم عاملاً على القفول فسقط في ايديهم وتطايروا عن السهول الى المعاقل »[٣٨] وذلك للاحتماء والنجوة بأنفسهم على أمل التخلص من مطاردة الجند والعساكر الفاتحة لهم .

بيد ان مواصلة طارق بن زياد لعملياته العسكرية ، كانت تفرض عليه العمل على تفريق جيشه الى افواج وبعوث الى أطراف البلاد ، بينما هو يمضي الى جهة أخرى على أمل اللقاء لغرض تمشيط المناطق التي انتشرت فيها جيوشهم والقضاء على جيوب المقاومة وفلول القوط الذين راحوا يلوذون فيها ، وقد قرر أن يتوجه صوب طليطلة[٣٩] قبل ان يتدارك القوط الأمر ويحكموا الدفاع او ان يبدأوا زحوفهم نحوه . وفي مدينة استجة وضع طارق بن زياد خطة السير واستصدر قراراته بتعيين قواده لامرة هذه الافواج ، فأرسل مغيث الرومي وهو مولى الخليفة الوليد بن عبدالملك في سبعمائة فارس الى مدينة قرطبة التي كانت من اعظم مدائنهم ، وفوّض احد قواده الآخرين الذين لم تذكر المصادر المتوفرة ، أسمه مع احد الأدلاء القوط جيشاً آخر الى نواحي مالقة حيث استطاع ان يقتحم اسوارها الحصينة ويستولي عليها دون مشقة[٤٠] ، كما جيش فوجاً ثالثاً الى منطقة البيرة ووضع على رأس قيادته احد رجاله من العرب الذي دخل مدينة غرناطة واحكم السيطرة عليها ، وذلك على الرغم من ان بعض المؤرخين لا يرجح دخول قوات طارق بن زياد

الى هذه المداين وفتحهـا ، لكنهم يعـزون فتحها وتحريرها الـى عبدالعزيز بن موسى بن نصير حيث تم ذلك في عهده • ولا يستبعد ان طارق بن زياد قد بعث سرايا صغيرة الى هذه النواحي وغيرهـا لمجـرد الاستطلاع لا الفتح وربما يكـون يوليان صاحب هـذه الفكرة(٤١) •

اما ما يتعلق بفتح مدينة قرطبة ، فان مغيث الرومي ، حـرك قواته التي لا تزيد على السبعمائة فارس نحوها حتى ادرك الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير الذي يقابل المدينة ، ويقدّم لنا ابن حيان تفصيلات مهمة عن المحاولات التي بذلت للدخول اليها ، حيث استطاع بعض الرجال المكلفين الاتصال بنفر من الأهلين الايبيريين الرومان الذين كانوا يقطنون الجزء المقابل للقنطرة التي عسكر فيها الجيش العربي وأمام الكنيسة الجامعة (الكاتدرائية)(٤٢) وعرفوا منهم اسرار المدينة ، وفي هذا الصدد يلقي الرازي ضوءاً مفيداً على العملية التي نفذت فيها الخطة التي وضعها طارق بن زياد لقائـده لغرض الاستيلاء على قرطبة ، فقد اقبلوا رويداً وعبروا نهر قرطبة ليلاً وبغفلة من حرس الاسوار تمكنوا من احكام سيطرتهم علـى المدينة(٤٣) •

ولا غرو ، فان سقوط هذه المناطق والمدن بيد قوات طارق بن زياد وعساكره اتاح الفرصة لهذا القائد ان يزحف الى منطقة جيان مستهدفاً الوصول الى طليطلة(٤٤) ، فاخترق هضاب الاندلس وجبال سيراموريناً وعبر نهر الوادي الكبير عند منطقة منجبار وسـار في الطريق الروماني القديم الذي كان يطلق عليه اسم « وادي هانيبال »

ماراً بمدينة جيان . لقد مهد سقوط جيان الطريق نحو طليطلـة ، ويسّر نفاذ قواته الى دواخل المدينة واستحكاماتها ولم يبد القوط المدافعون عنها اية مقاومة بوجه طارق بن زياد فعامل اهلها وانصفهم وتسامح معهم وترك لهم حرياتهم كاملة ، وقد وجد المدينة خاليـة « ليس فيها الا اليهود في قوم قلة وفر علجها مع اصحابه ولحـق بمدينة خلف الجبل بعد ان ضم اليهود وجعل معهم بعض رجالـه واصحابه بطليطلة وفرّ علجها بنفسه مع اصحابه »[٤٥] .

وترك طارق بن زياد لاحبار طليطلة ، حرية اقامة الشعائر الدينية واختار لحكمها وادارتها المطران « آوباس » . اما اسقف البلـد سـندرد وكبار قساوسته في المجمع الطليطلي ، فقـد فضلوا ترك المدينـة والتوجه الى روما ، كما قضت ظـروف المعارك التي كان يخوضها الجيش العربي في هذه المنطقة ان يترك طارق بن زياد فرقة من عسكره في مدينة طليطلة ، لكي ينصرف هو مع بقيـة جنـده لاستكمال السيطرة على المواقع الأخرى ، وفي شمال المدينة لتأمين المناطق القريبة منها واخلائها من تجمعات الفلول القوطية ، فسلك وادي الحجارة مخترقاً المناطق الجبلية من ثغر فيها سمي فيما بعـد « فج طارق »[٤٦] حيث ادرك مدينة « المائدة »[٤٧] ، ولعل العرب هم الذين اطلقوا هذه التسمية على المدينة وذلك لانهم وجدوا فيها المائدة المعروفة عند مؤرخي العرب « بمائدة سليمان بن داود عليه السلام »وربما كانت هـذه المائـدة هـي مذبح لكنيسة طليطلـة العظمى[٤٨] ولا مندوحة ان يكون وقوعها في يد الجند العربي ، قد أثار دهشة واستغراباً بين القوط[٤٩] ، نظراً لنفاستها وقداستها ،

حيث كانت مصنوعة من زبرجد خالص وهي درة من درر الفن ومحلاة بأثمن مالديهم من الذهب والجواهر[٥٠] .

والظاهر ان طارق بن زياد عاد ادراجه الى طليطلة بعد ان « دوّخ الجهة »[٥١] بانتصاراته المتتالية ، لكي ينصرف الى تنفيذ بنود خطته التي وضعها ، ولكن ليس صحيحاً القول ان عودته الى طليطلة كانت بناء على ما بلغه من عزم موسى بن نصير على اللحاق به ومعاقبته بسبب خروجه على أمره ، وان هذا الأخير لم يكن يتوقع ان يقوم طارق بن زياد بهذا الدور ويحرز كل هذا النصر ، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه تحول اعجابه به الى حسد وغيرة وخشي ان ينسب ذلك الفتح العظيم اليه دونه فكتب اليه الا يتقدم حتى يلحق به ويتوعده بالعقاب اذا توغل بعد بغير اذنه ـ كما تزعم بعض المصادر[٥٢] . كما انه ليس من الآراء التي يمكن التسليم بها ، ان طارق بن زياد خالف الاوامر الصادرة اليه بألا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط[٥٣] ، ولعل التعليل القائل بأن توقف طارق بن زياد عن مواصلة الفتح كان بسبب حلول فصل الشتاء العاصف بالبرد وتقلبات الطقس ، هو اقرب الى الحقيقة فالظروف المحيطة بقواته لاتعين على تقدمها ـ وربما تعيقها اعاقة بالغة ـ نحو المدن والمعاقل كما ان الأجهاد قد نال منهم ففضل ان يقضي هذا الفصل في طليطلة لكي يمنح جنده فرصة راحة يعودون بعدها اقوياء مندفعين[٥٤] .

ويزيدنا ابن الكردبوس بياناً ، حول ما أشار اليه المؤرخون من غضب موسى بن نصير على طارق بن زياد ولحاقه به فيقول :

« ان موسى بن نصير حين انفذ طارق بن زياد كان مكباً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى والابتهال اليـه في ان ينصـر جيش المسلمين وما علم انه هزم له جيـش قط »[٥٥] ويفهم من هـذا بالتأكيد ان موسى بن نصير لم يكن غاضباً على ما أنجزه قائـده طارق بن زياد في المعارك التي خاضها وتقدمه في رحاب البـلاد وانتصاراته فيها ، ولعل اوامره العسكرية المشددة والقائمة على الحيطة والحذر وتوجيهاته التي كان قد اصدرها الى طارق بن زياد للحفاظ على عدته من الجند والعساكر وسلامتهم وعدم التغرير بهم في خطة التوغل في اراض ومسالك مجهولة ، قد فسرت من بعض المؤرخين هذا التفسير الخيالي ؛ كما لا يتبادر الى الذهن اعتماداً على اشارة هذا المؤرخ نفسه ان موسى بن نصـير كان يبـذل محاولاته لكي ينسب الى نفسه فتوح طارق بن زياد في هذه البلاد وينكر دوره الرائد في نشر الاسلام والسيادة العربية فيها[٥٦] .

ويتعزز اعتقادنا في هذا الأمر فيما كانت عليه صلة طارق بن زياد بقائده الأعلى مستمرة ، حيث كان يتلقى أوامـره وتعليماته منـه اولا بأول ، فيقوم بتنفيذها طبقاً لخطته العسكرية العامة ، وكان يستشيره او يسـتمده اذا اسـتدعى الموقف منه ذلك في الرجال والامدادات والعساكر ، وقد حصل ذلك فعلاً قبل معركة وادي لكة التي اسلفنا الكلام عنها ، وبذلك يكون موسى بن نصير على علم تام بتحركات الجيش العربي وبالنشاط الذي كان يبذله طارق ابن زياد في فتح هذه البلاد وارساء دعائمه فيها ، وفي هذا الصدد يلقي ابن الكردبوس ضوءاً مفيداً بعد معركة وادي لكة بقوله :

« اتصل الخبر بموسى بكتاب طارق اليه فكتب به موسى الى الوليد »[٥٧] وهنا يصح القول باطلاع طارق بن زياد قائده موسى ابن نصير على جميع الأمور التي تتعلق بالفتح وتقدم القوات والشؤون العسكرية والعامة ، حتى انه ارسل اليه يستنجده بعد مضي سنة من جوازه الى الاندلس وتفريق جيشه الى افواج وسرايا فيها واستشهاد نصفه تقريباً مخافة ان يستغل القوط قلة عسكره فيغلب على امره ، مما استدعى موسى بن نصير ان يتخذ قراره الحاسم في اللحاق بالاندلس لتلافي الخطر الذي قد ينجم عن الثغرات الخلفية لعساكر طارق بن زياد وكتائبه المنتشرة في ارجاء البلاد ، الأمر الذي يسوغ لنا ان نستبعد ما جاءت به المصادر العربية عن موقف موسى بن نصير من طارق بن زياد وشعوره بالحسد تجاهه ومعاقبته اياه ، وان عبوره انما تم لهذا الغرض ، وللدكتور حسين مؤنس بعض الآراء في هذا الصدد ربما تلقي بعض الاضواء على هذا الموقف الذي اختلف فيه المؤرخون وكتاب التاريخ ، فيذهب الى ان طارق بن زياد كان بطبعه رجلاً متواضعاً قنوعاً ، وكان قد فتح هذه الفتوح كلها باسم موسى بن نصير واوقفه على اخباره ، وان السفن رائحة غادية في المضيق والعرب قد استوثقوا لانفسهم من ميناءي جبل طارق والجزيرة الخضراء ، لذلك فلا يعقل ان يكون موسى بن نصير قد شعر ان الجيش العربي الذي كان يقوده طارق بن زياد قد استرسل اكثر مما ينبغي وان خطوط مواصلاته في شبه الجزيرة الواسعة في خطر حيث بقيت مدائن الشرق والغرب جميعاً لم تفتح وكان لابد من فتحها والا تعرضت قواته للخطر اذا شاء القوط في اربولة او

اشبيلية في الشمال مهاجمة الحامية الصغيرة التي كانت في قرطبة وقطع الجيش والحامية معاً عن موانيء الاتصال بالمغرب[58] .

ويتوضح لنا من خلال استعراض النصوص والمعلومات والأخبار التي اوردها المؤرخون ، التناقضات في رواياتهم وعباراتهم وخاصة فيما يتعلق بعبور موسى بن نصير ولحاقه بطارق ابن زياد وزعمها حول معاملته اياه بشيء من الازدراء والاساءة . يذكر ابن حيان مؤرخ الاندلس ان « موسى تنكب الجبل الذي حله طارق ونزل على الموضع المنسوب اليه المعروف الآن بجبل موسى واحتل الجزيرة الخضراء وقال : « ما كنت لاسلك في طريق طارق ولا اقفوا أثره » غير ان اصحاب يوليان عرضوا عليه ان يسلكوه على طريق هو اشرف من طريق طارق بن زياد وان يدلوه على مداين اعظم خطراً من مداينه « فملىء سروراً »[59] .

ولا ريب فأننا نلاحظ بسهولة ، التناقض في كلام هذا المؤرخ وهو يتحدث عن سلوك الطريق الذي كان قد تنكبه طارق بن زياد في العبور الى هذه البلاد وحتى انه وصل الى المكان نفسه . يعود المؤرخ ليذكر عن لسان موسى بن نصير انه لم يتخذ هذا الطريق ولم يقف الاثر الذي سلكه طارق بن زياد . ويشير ابن القوطية القرطبي مبالغاً الى انه لما بلغ موسى بن نصير ما تيسر له حسد طارق بن زياد على ذلك وقدم في حشد كبير وترك المدخل الذي دخل منه طارق بن زياد[60] .

ويبدو على اقوى الاحتمالات ان هذا المؤرخ نقل من غيره بدون تدقيق عبارته ، ومن الناحية الأخرى فربما يكون من المفيد

ان يسلك موسى بن نصير طريقاً مخالفاً لما سلكه طارق بن زياد فعلاً لزيادة الحيطة في سلامة قواته ولتأمين طريق آخر لهـا في عمق البلاد ، كما ان الخطة الصحيحة التي ينبغي ان يختطها موسى بن نصير في استكمال فتح المدن والمعاقل التي لم تنلها قوات طارق بن زياد هو الدخول في طرق جديدة تؤدي الى هذه المناطق والمراكز .

اما ابن عبدالحكم فينحوا الى المبالغة في هذا الأمر حيث يشير الى ان موسى بن نصير « شدَّ وثاق طارق وحبسه وهمَّ بقتلـه » ثم يقول ، ان تدخل مغيث الرومي انقذ طارق بن زياد ، فقد كتب اليه هذا الأخير من محبسه ــ كما يزعم ــ يرجـوه ان يسـارع الى الخليفة الوليد بن عبدالملك ليخبره بما وقع له ، فلم يكن من مغيث الرومي الا ان ذهب الى موسى بن نصير وحذره من الاساءة الى طارق بن زياد ، بل لم يكتف حتى ذهب الى دمشق وابلـغ الخليفة بالأمر ، فكتب هذا يهدد موسى بن نصير وابلغه بالمثول بين يديه فخاف موسى واطلق طارقاً » ثم لم يلبث ان عاد ليؤدي عند الخليفة حساباً عسيراً على ما فعـل »(٦١) . وقد انفـرد ابن عبدالحكم بهذه الرواية والسبب كما نظن هو ذيوعها في المشرق دون المغرب بتأثير الضجة التي اثارها مغيث الرومي ضد موسى بن نصير وموقفه المناوىء منه هناك وذلك لدوافع شخصية ، فتلقفها ابن عبدالحكم دون تمحيص وسجلها في كتابه(٦٢) . اما صاحب كتاب اخبار مجموعة فالظاهر انه نقل عن مصدر آخر عبارة : « فلما رآه ــ اي طارق بن زياد ــ نزل اليه ، فوضع موسى السوط على رأسه وأنبـه فيما كان من خـلاف رأيه »(٦٣) .

ويصمت هذا المصدر عن ذكر ما أجمعت عليه المصادر الأخرى من تعاون بين موسى بن نصير وطارق بن زياد لاستكمال فتح الاندلس حيث جعل موسى بن نصير طارقاً على قيادة جيشه وسار كل منهما في اتجاه متعاونين متساعدين(٦٤) ، ولم يشر صاحب هذا الكتاب الى طبيعة الخلاف بين القائدين ، وهل ان ما قام به طارق بن زياد يبرر الاجراء الذي يزعمه بوضع موسى السوط على رأس طارق بن زياد وتأنيبه ؟؟ •

غير ان ابن حيان ، على الرغم من انه لم يذكر شيئاً عن ضرب موسى بن نصير لطارق بن زياد وسجنه ، فان ما أورده بخصوص المصالحة التي وقعت بينهما واظهار الرضى عن طارق بن زياد واقراره على مقدمة الجيش وامرته بالتقدم امام موسى بن نصير في اصحابه ، وان هذا الأخير وبخ طارقاً على مخالفته أمره ثم لم يلبث الود ان عاد بينهما ، كما ان ما جاء به ابن عبدالحكم ان موسى بن نصير أنب طارق بن زياد وبالغ في اهانته وزجه مصفداً الى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان ، وقيل همّ بقتله ايضاً ، ولكنه ما لبث ان عفا عنه ورده الى منصبه(٦٥) • نقول ان ما أورده هذان المؤرخان لا يصمد امام النقد التاريخي الموضوعي وهو غير دقيق فالاول لا يريد ان يكذب الروايات والمقالات التي شاعت عن هذا الامر في تلك الحقبة ، اما الثاني فقد ظهر أشد مبالغة في معاملة موسى بن نصير لطارق بن زياد في سجنه مصفداً وهم بقتله ، لقد عمد المؤرخان الى هذا التعليل الذي لا يصمد امام حقيقة ان طارق بن زياد كان أوثق رجال موسى بن نصير في العمل المتواصل

الدؤوب على استكمال فتح الاندلس وتوطيد السيادة العربية الاسلامية فيها . ولا نعتقد ان ابن حيان أصح من ابن عبدالحكم في هذا الأمر[٦٦] ولكنه ربما يكون مصيباً في القول انه لو كان موسى مغيظاً على طارق بن زياد الى هذا الحد الذي يزعمه ابن عبدالحكم ، فكيف لم يستدعه اليه الا بعد ان أتم فتح ماردة مع انه — اي موسى بن نصير — اقام على هذا الفتح بضعة أشهر ؟ ثم كيف طلب اليه ان يخرج للقائه في طليرة احدى مدن غرب الاندلس فقط وقد كان مستطيعاً استدعاءه الى ابعد من ذلك ؟[٦٧] .

اما اللقاء الذي تمّ بين القائدين في طليرة فقد كان لغرض عسكري وذلك للسير قدماً في استكمال عملية الفتح التي استدعت موسى بن نصير للعبور في جيش عدته اكثر من ثمانية عشر الفاً من قريش والعرب ووجوه الناس[٦٨] وبناء على استغاثة طارق بن زياد التي اوردها ابن قتيبة من ان طارقاً كتب الى موسى مستغيثاً وذكر له : « ان الامم قد تداعت علينا من كل ناحية ، فالغوث الغوث »[٦٩] وفعلاً فقد قام موسى بن نصير بعدعبوره بافتتاح مدن غرب الاندلس مثل اشبيلية وماردة ولبلة وباجة وفقاً للخطة التي رسمها طارق بن زياد .

ولا غرو فان التعاون المثمر الذي تميزت به نشاطات طارق بن زياد العسكرية مع قائده الاعلى موسى بن نصير منذ ان وطأت سنابك خيلهما ارض هذه البلاد : جعلت مواقف بعضهما البعض ايجابية ، فلم نعد نسمع اية شكوى منهما حين مثلا امام الخليفة الوليد بن عبدالملك ، ولوكان بينهما خصومة لسمعنا لها صدى ،

ولو خافتاً ، في المشرق بعد ان عادا معاً[٧٠] وفي هذا الصدد يفيدنا المقري بروايته التي تقول : « ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبر الى الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له : يا طارق ، لن يجازيك الوليد بن عبدالملك على بلائك بأكثر من ان يبيحك الاندلس ، فاستبحه هنيئاً مرّياً ، فقال له طارق: ايها الأمير ، والله لا ارجع عن قصدي هذا ما لم انته الى البحر المحيط »[٧١] .

وعلى الرغم من ان الشك يساورنا في التفصيلات التي جاءت في هذه الرواية ولكنها عموماً تشير الى المواقف المنسجمة بين القائدين ، غير ان الرواية التي طلع بها علينا صاحب اخبار مجموعة التي تعزو الى مغيث الرومي انه كان وراء اشاعة الروايات التي تصور القائدين متعاديين ومتنافسين[٧٢] ، وانه كان يتربص بموسى بن نصير فيما كان الأخير يشعر بهذا فيتخذ للأمر عدته بالوقوف ضد تطلعات هذا القائد بالاستحواذ على ولاية الاندلس تقول ان هذه الروايات وغيرها مما يماثلها لا تسندها الوقائع . كما تزعم بعض المصادر ان مغيث الرومي ، لم يكد يسمع بسعي الخليفة الأموي الوليد ابن عبدالملك الى تعيين طارق بن زياد عاملاً على الاندلس « حتى مضى يخوّفه منه ويصده عن انفاذ هذا الغرض[٧٣] » .

ومن الجدير بالذكر اننا لا نتفق مع الرأي الذي يقول بفضل الكونت يوليان صاحب سبتة في تكامل الفتوح التي أتمها كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد وان يوليان واصحابه تولوا ارشاد موسى بن نصير الى خير الطرق التي يستطيع بها اكمال ما بدأ به

طارق بن زياد ، فالمرء اذا نظر الى نشاطهما في الفتوح ، حسب انها دبرت جميعاً من اول الأمر(٧٤) . والواقع اننا اشرنا فيما سبق الى المساعدات المحدودة التي قدمها يوليان الى طارق بن زياد فيما يتعلق بالاستدلال على طرق هذه البلاد ومسالكها وبمشورته في بعض القضايا التي تخص الهجوم على المدن والمعاقل الاندلسية وتمهيد الطريق للوصول اليها ؛ اما مهمة استدلال الطرق والمسالك لجيش موسى بن نصير ، فانها تمت على يد الجند العرب الذين اكتسبوا كثيراً من المعرفة بها خلال دخولهم مع جيش طارق بن زياد وتؤكد بهذا الخصوص، ان الفتوح لكل من القائدين متممة لبعضهما وانها دبرت فعلاً من اول الأمر بالخطط والموضوعات العسكرية التي وضعها القائدان بالدرجة الاولى ، وان يوليان بدأ يشعر بحاجته وحاجة طارق بن زياد الى عون جديد والا ساءت العاقبة ؛ ونعتقد انه ربما افضى الى طارق بن زياد بشيء من هذا اعتماداً على الرازي الذي يذكر ان طارقاً رجاه ان يكتب الى موسى ليعجل العبور ، كما نستدل على ذلك مما جاء به الادريسي حول عقد يوليان مجلساً للتشاور بالأمر مع موسى بن نصير ، ويذهب الى انه لو لم تكن الاحوال مضطربة مخوفة لما كانت هنالك حاجة الى المجلس والمشاورة ولسار موسى الى طليطلة قدماً ليلتقي بطارق بن زياد وليحاسبه على ما فعل ، كما ان خط سير موسى واتجاهه الى اشبيلية كان بفعل يوليان الذي نبهه الى خطورة ترك هذا المعقل الخطر وراء قواته دون فتح .

وعلى اية حال فان طارق بن زياد خرج ملبياً نداء قائده الاعلى وسار مسافة قدرها (١٥٠) كيلو متراً في الطريق الموصل بين طليطلة

وطلبيرة والمحاذي لوادي الأروكامبو ، يذكر صاحب الرسالة الشريفية ، ان موسى بن نصير استعرض جيوشه لدى بلوغه وادي المعرض فسمي الوادي بذلك فعرف من معه « فلما قرب من طليطلة خرج اليه طارق ونزل بين يديه اعظاماً له »(٧٥) اما في اخبار مجموعة فنقرأ ، ان موسى بن نصير التقى بطارق بن زياد في موضع يقال له « تايد » او « تايتر »(٧٦) وهي كلمة تأتي في معظم المصادر العربية ، وقد خرج معظماً له(٧٧) .

ويبدو ان مما عجل على اللقاء بين طارق بن زياد وموسى بن نصير وحفزهما على تجحفل قواتهما مع بعضهما ، هو ان القوط بدأوا يستفيقون ويستنفرون انصارهم ويستجمعون قواتهم ويتجالبونها ، الأمر الذي تطلب انقاذ القوات التي كانت بقيادة طارق بن زياد في بلاد الاندلس ، لغرض تعزيزها واتخاذ خطة مشتركة لجيش موحد بينهما ، فكان ان التقى القائدان في الموضع الذي اصبح تعيينه نقطة خلاف بين المؤرخين ، ولكن مهما يكن من أمر هذا الاختلاف فانهما وضعا معاً خططهما العسكرية لتمكين جيشهما من السير في ربوع الاندلس واستخدام ما آتيح لهما من القوى والوسائط لغرض الفتح ، وكانت بداية الخطة العسكرية الهجومية لهما تقوم على سلوك الطريق الروماني القديم الممتد من ماردة وشلمنقة عبر مناطق جبال سيرادي فراتيا واجتياز المناطق المتاخمة لها للوصول الى نقطة التقاء الطريقين الموصلين من ماردة الى شلمنقة حيث راحت قواتهما تكتسح أمامها المراكز القوطية المنتشرة هنا وهناك في هذه البلاد(٧٨) . غير ان اجتياز هذا الطريق الوعر ترتب عليه خطورة على الجيش العربي قد تأتي من جانب

القوط ، فالظاهر ان لوذريق انتهز فرصة عبور القوات العربية لهذا الطريق وانقض بقواته عليها بالقرب من مدينة « سيجوبلا » التي تقابل في المصادر العربية كلمة « السواقي » أو « السواني »[٧٩] ، وليست لدينا تفصيلات كثيرة حول الموقعة التي خاضها العرب ضد القوات القوطيـــة وكل ما ذكرته المصـــادر عنها تسميتها بموقعـــة « السواقي » بسبب وقوعها على مقربة من نهـــر « فالموتا » الذي اطلق عليه فيما بعـــد نهر « موسى » وكذلك لقربهـــا من مدينـــة « تماس »[٨٠] والبحيرات التي تـــسمى بهذا الاسم ، وفي هذه المعركة استطاع الجيش العربي ان يمزق صفوف القوط ويوقع بهم الهزيمة المنكرة وتم افناء جموعهـــم وقتل لوذريق نفسه وهو آخـــر ملوك القوط[٨١] في وادي الطين الذي اشـــار اليه ابن عـــذاري بقوله : « فانهزموا وادرك رذريق فقتل في وادي الطين »[٨٢] . ولا نعلـــم الدوافع الحقيقية لاهمال المؤرخين اهمالاً شبه تام لهذه الموقعة ، وكذلك نجهل الدور الذي قدر لطارق بن زياد ان يلعبه فيها وربما كان دوراً مهماً بسبب خبرته في قتال القوط وخوضه لمعركة وادي لكة التي أوقع فيها الكثير منهم في القتل والأسر .

ولعل من الطبيعي بعد الانفضاض من معركة الســـواقي التي سجل فيها الجيش العربي الاسلامي انتصاره الساحق على جيوش القوط ، ان تضع القوات العربية قدماتها في ربوع الاندلس وتزحف صوب المناطق المجاورة فتصل الى ما يعرف بـ « فج موسى »[٨٣] ثم تواصل الزحف نحو الشمال الشرقي وتخترق ولاية « اراكون » وهو الثغر الاعلى الاندلـــسي وتـــمكن القوات من الدخـــول في سرقسطة وطركونة وبرشلونة فتوطد النفوذ العربي في هذه المدائن

والمعاقل ثم تقضي الخطة بأن يمضي كل من موسى بن نصير وطارق ابن زياد كل منهما في اتجاه معين فسار طارق بن زياد بكتائبه نحو الشرق ليدخل جيليقية وليتم اخماد تحركات الفلول القوطيـة التي كانت قد فـرّت من ارض المعارك وبدأت تتجمع هناك ، وزحف موسى بن نصير شمالاً مخترقاً جبال البرنية (البرت او البرتات) او ما تطلق عليه المصادر العربية اسـم « الممرات »(٨٤) واجتاحت جحافله ولاية سبتمانيا الاسبانية واتمت استيلاءها على قرقشـونة (كاركاسون) واربونة وابينون ثم نفذت الى مملكة الفرنج حتى وصلت الى لوطون او لودون (وهـي ليون الحالية في فرنسـا). فاضطرب امراء الفرنج واخذوا في الأهبة لرد جحافل العرب . وعلى الرغم من التقدم الساحق الذي حققته أرتال موسى بن نصير في هذه المنطقة ، فان ابن حيان ومعظم الروايات العربية الأخرى تؤكد ، ان الزحف العربي للقائدين التاريخيين موسى بن نصير وطارق بن زياد قد توقف عند مدينة اربونة(٨٥) غير ان المقري يورد نقلاً عن ابن حيان ما يشـير الى النشـاط العسكري لكل من طـارق بن زياد وموسى بن نصير في تلك المنطقة وفيما وراء جبال البرت حيث أمر موسى طارقاً : « بالتقدم امامه في اصحابه وسار موسى خلفه في جيوشه فارتقى الى الثغر الاعلى وافتتح سرقسطة واعمالها ثم اوغل في البـلاد وطارق أمامه لا يمرّ ان بموضع الا فتح عليهما .. فلم يعارضهما احد الا بطلب الصلح وموسى يجيء اثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتـداءه ويوثّق للناس ما عاهـدوه عليـه حتى انتهوا الى وادي ردونة »(٨٦) .

ويذكر كذلك من تقوله عن ابن حيان ، ان بعوث طارق بن زياد وسراياه قد « دوّخت بلد افرنجة فملكت مدينتي برشلونة واربونة وصخرة ابنيون وحصن لوذون على وادي ردونه فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلو جداً »(٨٧) .

ولعل ما تناقلته المصادر بصدد الخلاف المزعوم الذي وقع بين هذين القائدين وما نما الى الخليفة الوليد بن عبدالملك بشأنه والتضخيم له ، حمل الخليفة على استدعائهما للمثول امامه في دمشق وايقاف عملية الفتوح في هذه البلاد ، ويذهب الاستاذ محمد عبدالله عنان الى القول ، انه ربما كان من هذه البواعث خوف الوليد بن عبدالملك ان ينتهي هذا الخلاف الى تفرّق كلمة العرب المسلمين ونكبتهم في تلك الاقطار الجديدة المجهولة او خوفه من استقلال موسى بن نصير بهذا القطر النائي ، ويخلص الى الاستنتاج ان هذا هو افضل تعليل يقبله النقد التارىخي الحديث ويرجحه(٨٨) ، غير ان الدكتور عبدالعزيز سالم يعلل هذا الاستدعاء بسبب ما صحب الفتح من موجة عاتية من التدمير والتخريب ، حيث أحدث ذلك اثره السيىء في نفس الخليفة فلم يمض وقت قصير حتى استدعاه الى المشرق(٨٩) .

ويذكر المقري ، ان الخليفة أمر موسى بن نصير بالتحول الى دمشق للمرة الثانية « فساء موسى بن نصير ذلك وقطع به عن ارادته ، اذ لم يكن في الاندلس بلد لم تدخله العرب الى وقته غير جيليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها »(٩٠) والظاهر ان معاقل جيليقية وقلاعها ، اصبحت مأوى للفلول القوطية ، فليس امام

هذا القائد سوى تطهير جميع الاندلس من كل مقاومة ، فاخترقها واستولى على معظم معاقلها ؛ وهناك تعليل الدكتور حسين مؤنس لهذا الاستدعاء اعتماداً على المقري بقوله : « ان موسى بن نصير بعث برسولين الى الخليفة الوليد ينهيان اليه اخبار هذا الفتح العظيم ووقع اختياره على التابعي علي بن رباح ومغيث الرومي ؛ ويبدو ان هذا الأخير قد ساءه ان ينسب موسى بن نصير فضل الفتح كله الى نفسه مغفلاً بيان ما قام به طارق بن زياد فانتقص موسى بن نصير وشوه سمعته لدى الخليفة فكان لهذا أثره في استدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد »[٩١] .

ومهما يكن من أمر ، فان موسى بن نصير واصل زحفه في الاندلس حتى بعد استدعائه ، وبدأ يصعد من عملياته العسكرية بقيادة طارق بن زياد حيث قدم هذا الأخير على جيشه محمد بن الياس المغيلي وهو من القادة البربر فاستولى على وادي الحجارة وما فيه من المدن والمستوطنات[٩٢] . ويمكن الى حد ما تعليل تصعيد موسى بن نصير وطارق بن زياد وتشديدهما في الفتح الذي وصفه بعض المستشرقين والمؤرخين والكتاب في هذه المرحلة بالعنف والشدة بسبب ارتداد اهل المدن وثوراتهم ضد الحاميات العسكرية التي كان القائدان يبقيانها في قصباتها ومراكزها ، فبينما كان طارق ابن زياد يأخذ البلاد بالرفق والصلح فيؤمن اهلها وهو لا يستبيح لنفسه من الأموال والمغانم ، نسمع عن الفتح عنوة ، فضلاً عما صاحب ذلك من تسريع لعملية الفتح بموجب ما تلقاه من امر قائده الاعلى موسى بن نصير .

وتقدم لنا بعض المصادر معلومات عن فتح الجيش العربي لمدينة سرقسطة وذلك قبل استدعاء الخليفة لموسى بن نصير وطارق بن زياد للمرة الثانية ، فيذكر ابن عذاري ، ان موسى بن نصير افتتح سرقسطة وافتتح ما حولها من الحصون والمعاقل[٩٣] فيما يؤكد المقري ، ان طارق بن زياد كان يقود هذا الجيش لتحرير منطقة الثغر الاعلى الاندلسي ، حيث نشط في افتتاح قصبة سرقسطة[٩٤] التي كانت تسمى « المدينة البيضاء »[٩٥] .

وعلى الرغم مما عرف به العسكر العربي الاسلامي من استعمال القوة واحكام السيطرة في هذه المرحلة من النشاط العسكري ، فان طارق بن زياد ، افتتحها دون قتال وعهد الى « حنش بن عبدالله الصنعاني السبئي »[٩٦] وهو من صناع الشام بانشاء مسجد سرقسطة وكان قد اشرف على بناء مساجد قرطبة والبيرة وعدد من مساجد افريقية ، ويذكر العيني ، ان هذا المسجد اصبح مسجداً جامعاً يشخص خلال قرون عدة في تلك المناطق مناراً للاسلام[٩٧] .

ونعود لاستعراض المعلومات التي تؤكد ان خط سير طارق بن زياد في منطقة الثغر الاعلى ، يبدأ من سرقسطة يساراً في مواجهة تيار وادي نهر ابرة نحو غرب البلاد وشمالها الغربي ، وربما سلك جهة يمين النهر مبتدئاً من ضفته الجنوبية ، حيث اكتسح بجيشه بلاد البشكنس عند منطقة « ناقار » التي اسمتها المصادر العربية «نبارة» في حين سلك موسى بن نصير يميناً متحدراً مع نهر ابره نحو الشرق والشمال الشرقي وفي محاذاة يسار النهر (الضفة اليسرى)[٩٨] ،

غير ان الدكتور عبدالرحمن علي الحجي يذهب الى القول مستنتجاً، ان موسى بن نصير هو الذي افتتح بلاد البشكنس ، ويضيف انه ربما يكون قد التقى بطارق بن زياد وتعاون معه في فتحها او لعله يعني ان ذلك قد تم بالبعوث والسرايا التي قاد طارق بن زياد بعضها(٩٩) .

والظاهر ان طارق بن زياد وموسى بن نصير واصلا سيرهما باتجاه مدن وشقة ولاردة وطركونة في اقصى الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الايبيرية بغية استكمال نشر السيادة العربية وتوطيد عملية الفتح في جميع هذه البلاد .

ومن الجدير بالذكر، ان الجند بدأوا يظهرون رغبتهم في العودة بل وامتعاضهم ومعارضتهم في التقدم للامام نحو المجاهل ، واستوحشوا من هذه النواحي وقد انضم اليهم حنش بن عبدالله الصنعاني ، حيث وقف امام موسى بن نصير قائلاً : « اين تذهب ؟ تريد ان تخرج من الدنيا او تلتمس اكثر واعظم مما أعطاك الله والعرض مما فتح الله عليك ودوخ لك اني سمعت من الناس ما لا تسمع وقد ملأوا ايديهم واحبوا الدعة »(١٠٠) وان موسى بن نصير وربما طارق بن زياد معه ، كانا يحاولان اقناع بعض من تمرد من الجند بضرورة الاستمرار في العمليات العسكرية(١٠١) .

ومن الجهة الأخرى ، تفيدنا بعض المصادر ، ان موسى بن نصير اقام في سرقسطة متخذاً منها مقراً ومنطلقاً لبعوثه العسكرية لكي يرسم الخطط وينسقها ويناقشها مع قادته ومستشاريه العسكريين ، وربما كان هذا القائد قد وجه كتائبه لفتح مدن وشقة ولاردة

وطركونة وبرشلونة او انه افتتح بعضها بنفسه . اما ما يتعلق بفتح مدن بلنسية وساقونية وشاطبة ودانية ، فيبدو انه اوعز الى طارق ابن زياد للقيام بهذه المهمة(١٠٢) .

ولعل ما جاء عند ابن سعيد المغربي عن شرب موسى بن نصير من ماء نهر « جلق » فاستعذبه وهو اعذب ما شرب من ماء(١٠٣) ، يقودنا الى الاستنتاج ، ان طارق بن زياد كان على رأس الكتائب التي اجتازت هذه المنطقة ، لانه كان يتقدم الجيوش الزاحفة اليها ، حيث وصل الى هذا النهر الذي هو احد الروافد التي تغذي نهر أبره(١٠٤) الذي تقع عليه مدينة سرقسطة(١٠٥) . والظاهر ان المقري نقل عن ابن سعيد هذه الاشارة التي تلقي بعض الضوء على جهود طارق ابن زياد في العمليات العسكرية بمنطقة سرقسطة قبل اجتياز جبال البرت في الارض الكبيرة جنوبي فرنسا .

وعلى العموم ، فان استمرار طارق بن زياد في عملياته العسكرية في هذه المنطقة أدى الى تغلغله في بلاد « غاليش » أو « غالة »(١٠٦) وانصرافه الى نشاط اكثر تركيزاً في مجال الفتح ونشر السيادة العربية في هذه الربوع ، وذلك على الرغم من شحة المعلومات التي تقدمها المصادر المتوفرة لدينا في الوقت الحاضر بهذا الخصوص .

اما فيما يتعلق بمهاجمة طارق بن زياد البشكنس في مناطقهم التي تقع على يسار نهر ابرة ، فقد احرزت نشاطاته هناك انتصارات متتالية بالتغلب على حصونهم وقلاعهم ، كما أودت بتحركاتهم وتأليبهم ضد الفتح العربي الاسلامي للاندلس عموماً ولهذه المنطقة

بصورة خاصة ، مما اضطر الكثير منهم الى اعتناق الاسلام وعلى رأسهم «فرتون» زعيم اقليم «شبية Elca » وهو احد اقاليم بلاد غالة (غاليش) ويكون جزءاً مهماً منها ، ويشير ابن القوطية القرطبي الى فتوح طارق بن زياد في تلك الجهات بقوله : « ... ثم تقدم الى استجة والى قرطبة ثم الى طليطلة ثم الى الفج المعروف بفج طارق الذي دخل منه جيليقية فخرق جيليقية حتى انتهى الى استرقة »(١٠٧) .

غير ان هذا المؤرخ لم يذكر دخول قوات طارق بن زياد في مدينة « أماية » حيث وافى قوات موسى بن نصير في الطريق منصرفاً من الثغر الاعلى ، فساروا في جيش موحد واخترقوا الفج المعروف بفج موسى في طريقهم الى طليطلة . ويمكن القول ، ان المحور الذي سلكته قوات طارق بن زياد قد تحركت صوب سرقسطة ثم الى تطيلة ومنها الى قلهرة واماية حتى انتهت الى ليون من بلاد الارض الكبيرة في غالة ، وهو المحور الذي جاء في الخطة العسكرية التي كلفه بها موسى بن نصير بالتحرك بغية الانعطاف شمالاً للوصول الى « اويدو » والمناطق النائية من اقليم جيليقية على المحيط الاطلسي للالتقاء هناك واستكمال فتح هذه الآفاق .

ولعل الخطة التي عول القائدان موسى بن نصير وطارق بن زياد على تطبيقها في منطقة شمال الاندلس ، كانت تقوم على اسلوب الحرب التشتيتية(١٠٨) وكذلك على نمط الهجمات الوقائية ، وكلاهما كانا يستهدفان تحقيق « استراتيجية وضوح الهدف » فقد

نشط الجيش العربي الاسلامي في بعثرة جهود القوط الغربيين قبل ان يستكملوا عدتهم او يستجمعوا قواهم وتتعزز قدرتهم على الوقوف ضد الفاتحين ، كما اجهض تجمعات المقاومة في المدن والمراكز ليحول دون تفاقم خطرها على السيادة العربية هناك ، ويبدو انه لم يقدر لهما انجاز ذلك والوصول الى ما يريدون ، لولا وضوح هدفهما في نشر الاسلام واقامة المجتمع العربي الاسلامي بعيداً عن الاخطار المحتملة وبمعزل عن كل تهديد .

وربما توحي حركة الفتح التي أتمها القائدان موسى بن نصير وطارق بن زياد بأنها قامت على اساس الخطط التي وضعها الاول وهو ما يتبادر الى ذهن الكثير من المؤرخين المعاصرين ، غير انها على الارجح انجزت بخطط مشتركة وخاصة بعد التحام جيشيهما(١٠٩) ، اما المعارك التي وكل طارق بن زياد بخوضها منفرداً في عساكره ابان دخوله الاندلس(١١٠) ، فانه انصرف الى تحضير خططها العسكرية والتكتيكية بنفسه وبالتشاور مع قادته ؛ وعلى الرغم من عدم توضيح المصادر لهذه الخطط والموضوعات او عدم تطرقها وحتى خلوها من اية اشارة الى ذلك ، فقد يمكن فهم الصورة العامة لخططه في السير في هذه البلاد حيث تظهر كفاءاته العسكرية في تأمين قواته وخطوط سيرها وتوفير الوسائل الضرورية لها من المؤن والخيول وجميع أوجه الامداد ، وكذلك تعميق ايمان جنده وايقاظ عواطفهم واثارة هممهم وتحريضهم على مواصلة الحرب من اجل نشر الاسلام والسيادة العربية ، يظهر ذلك جلياً في سرعة انجاز مهماته التي اوكلت اليه من قبل قائده الاعلى والتحاقه به بعد اتجاهه

نحو الغرب والشمال الغربي وبمحاذاة يمين نهر ابرة وبالقرب من ليون على أمل التوجه سوية الى بلاد الشام للمثول امام الخليفة الوليد بن عبدالملك .

وعلى الرغم مما جاء في المصادر العربية من تغليب موسى بن نصير للعنف والشدة في فتح جهات الاندلس الشمالية ومنطقة الثغر الاعلى ، فانها تبدو مبالغة ، فهذا القائد كان يترتب عليه ان يدمر قوات القوط ومراكز تجمعاتهم في عمق الاندلس وخاصة في لبلة وباجه واشبيلية وفي سائر المدن والقلاع والحصون المنبثة هناك ، لئلا يشتد التأليب عليه . اما فيما يتعلق بطارق بن زياد فلم تذكر هذه المصادر ما يشير الى توسله بما وصفت به فتوحات موسى بن نصير فقد درج الاول على اتخاذ قرارات ترتبط بمعرفة صحيحة لابعاد الموقف السليم القائم على أسس ستراتيجية مبادىء الحرب ومعرفة تامة بالعدو وبتحركاته وبطبيعة منطقة العمليات القتالية ؛ وربما كان من الصعب انتقاء موقف معين لطارق بن زياد ، يبرهن على نجاحه في الوصول الى قراراته الصحيحة في سلوكه العسكري وتحقيق اهدافه ؛ فالمصادر المتوفرة لدينا ، لاتذكر لنا سوى انتصاراته المتتالية في الجبهات التي انتشرت فيها قواته .

ويمكن ان نستنتج بسهولة ، ان مسيرة الفتوح التي خاضها القائدان موسى بن نصير وطارق بن زياد مجتمعين او على انفراد اثبتت بقوة شخصيتهما . ولكن ليست هذه النقطة كما يذهب بسام العسلي الى القول ، هي موضع البحث ، وانما النقطة الاساسية ، هي ان قيادة رجال من امثال طارق بن زياد ليست بالعملية السهلة ،

ولقد كان في صفوف المسلمين من التابعين من هم من امثال طارق في رجولتهم وفروسيتهم وكفاءتهم ، وهنا تبرز قدرة موسى بن نصير ، فقد كان « اسداً يقود جيشاً من الاسود »(١١١) .

ولعل اهم ما يمكن ان نشير اليه فيما يتعلق باكتساب طارق بن زياد بعض خلال قائده موسى بن نصير وصفاته في الجوانب القيادية واساليب الحرب والقتال وفنونهما ، هو ظهوره بروح معنوية عالية، فهو محصلة للثقة بالقائد ثم الثقة برفاق السلاح من المقاتلين ثم بعد ذلك ، الثقة بالسلاح ذاته(١١٢) وايمانه بالهدف وحرصه على جنده وقواده ، والقدرة على تحمل الصعاب وكذلك الانضباط والطاعة .

ويصح القول ، ان طارق بن زياد كان يحوز على صفات عدة ؛ ولا اظنني بحاجة الى الاسترسال كثيراً في ايضاحها ، ويأتي في مقدمتها ، صفاته العسكرية وسياسته وستراتيجيته وتكتيكه وكذلك معرفته لطبيعة من يقود وادارتهم الى جانب البراعة العسكرية التي كانت تتمثل بحسن تقديره للموقف وقوة تنظيم جيشه ومعنوياته وكذلك تماسه بالقطعات وقيادتها بنفسه وتحمل المسؤولية فضلاً عن الضبط الصارم لكي يخلق من جنوده قوة عسكرية خطيرة وكتمانه الذي يتطلب منه ذلك لقلة قطعاته ومحدوديتها وخاصة في بداية نزوله ارض الاندلس(١١٣) ، كما يتوضح من صفاته العسكرية توخيه لتحقيق هدفه واقتصاده بالقوة التي كان يمتلكها وعدم تفريطه بها اثناء أنتشاره هناك حيث توزعت قواته في مناطق مختلفة .

وهنالك من الصفات العقلية والشخصية ما يجعل طارق بن زياد قائداً مجرباً ، على الرغم من قصر المدة التي شغلها كقائد عسكري ،

فقد امتاز بأصالة الرأي والابداع وسرعة اتخاذ القرار وبعد النظر وكذلك بالشجاعة والثقة بالنفس والثبات والتوازن واخلاصه لمبادئه وقائده الاعلى وللدولة العربية الاسلامية وسياستها .

اما ما يتعلق بتطبيق طارق بن زياد لفن الحرب وخاصة في مجال الاستراتيجية العليا ، فقد اوضحت المصادر بشيء من التفصيل انه فعل ذلك بتبصر تام ، فكان يقتضي عليه الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة مع وضوح هدفه وحرصه على جيشه الذي هو دعامة نشر الاسلام في تلك الربوع ، وكذلك اتخاذه اسلوب الحرب التشتيتية واستراتيجية الهجمات الوقائية التي كانت تتطلبها طبيعة معاركه في ارض الاندلس ، وهو يطارد القوط من مدينة الى أخرى وكذلك تمسكه في مبادىء الحرب التي كان يخوضها ، حيث ظهرت من خلال فعالياته القتالية استخدامه لمبدأ المباغتة والمبادأة في القتال وزج القوى الهجومية المرتبطة ارتباطاً بحرب الحركة التي كانت قد امتازت بها الجيوش العربية الاسلامية وهي تقوم بالفتوح سواء في المشرق او المغرب .

هوامش الفصل السابع :

(١) ابن حيان كما جاء في المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٣٢ .
(٢) وهو نهر « بلرباتي » الذي مر ذكره في هذا الكتاب .
Leve-Provencal. Histoire de l'Espange Musulmane (1911) p. 15-16.
(٣) ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠ .
(٤) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ٧ .
(٥) ويبدو انه سمي كذلك بسبب قلة مياهه وكثرة طينه (ابن عذاري ، المصدر السابق ص ١٠) .
(٦) اخبار مجموعة ص ٨ .
(٧) كما جاء في المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٣ ؛ ثم انظر ابن حيان ، عن المقري ، المصدر السابق ص٢٣٢ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب جـ ١ ص ١١ والحميري الروض المعطار في خبر الاقطار ص ١٦٩ .
(٨) اخبار مجموعة ص ٩ .
(٩) اذ قال : « ان الاريك مؤسس دولة القوط ، ليخجل حينما يرى خلفه لوذريق متوجاً باللاليء ، متشحاً بالحرير والذهب ومضطجعاً على هودج من العاج .
(١٠) تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٨٢ .
(١١) الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٢١٢ .
(١٢) البيان المغرب جـ ٢ ص ٩ .
(١٣) د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٧٠٩ .
(١٤) اخبار مجموعة ص ٨ — ٩ .
(١٥) محمد عبدالله عنان . دولة الاسلام ص ٤٤ هامش رقم (٥) .
(١٦) م.ن ص ٤٤ .
(١٧) ابن عبدالحكم ، فتوح افريقية والاندلس ص ٩٦ .
(١٨) اخبار مجموعة ص ١٠ ؛ المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦١ .
(١٩) ابن القوطية القرطبي ؛ تاريخ افتتاح الاندلس ص ٧ ؛ اخبار مجموعة ص ٩ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١١ ؛ المقري ، المصدر السابق ص ٢٤٣ .

(٢٠) ابن القوطية : المصدر السابق ص ٧ .
(٢١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٧ .
(٢٢) محمد عبدالله عنان ، المصدر السابق ص ٤٥ .
(٢٣) كتاب الامامة والسياسة جـ ٢ ص ٧٥ ، ٧٦ .
(٢٤) د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٨٠ .
(٢٥) استند الاستاذ محمد عبدالله عنان في ذلك الى ابن الاثير بقوله « انه غرق في نهاية الموقعة » (الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٢١٤) والى المقري بقوله : « انه رمى بنفسه مختاراً الى النهر وقد ثقلته الجراح » (نفح الطيب جـ ١ ص ١٢١) .
غير ان المعروف لدينا ، نجاة لوذريق من معركة وادي لكه حيث جرد جيشاً آخر اكثر كثافة ليواجه به الجيش العربي مجتمعاً (جيش طارق بن زياد وجيش موسى بن نصير في معركة السواقي التي قتل فيها فعلا واجمعت على ذلك المصادر العربية والغربية) .
(٢٦) ينقل رأيه محمد عبدالله عنان ، المصدر السابق ص ٤٥ .
(٢٧) الرازي ، كما جاء في المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤٣ .
(٢٨) م.ن. ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٢٩) المقري ، المصدر السابق ص ٢٦١ ؛ ابن الأثير ، الكامل جـ ٤ ص ٢١٥ (ويسميها مدينة السليم) .
(٣٠) وتسميها المصادر العربية « مدور Almodovar » .
(٣١) ابن الشباط ، اصله السمط وسمط للرط (نشر مع «الاكتفاء» لابن الكردبوس بعنوان : تاريخ الاندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط (وهما نصان جديدان جاء ذكرهما عند الدكتور عبدالرحمن علي الحجي ، التاريخ الاندلسي ص ٣٥ . ١٢٥ ، ١٣٨) .
(٣٢) المقري ، المصدر السابق ص ٢٦٠ .
(٣٣) ابن الشباط : تاريخ الاندلس ص ١٤١ ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٨ ؛ المقري ، المصدر السابق ص ٢٦٠ .
(٣٤) لذلك اخذت اموال الغائبين والكنائس دية لمن قتل منهم . ويبدو ان الاستاذ محمد عبدالله عنان نقل عن مصدر متوفر لديه لم يذكره (دولة الاسلام في الاندلس ص ٥٢) .
(٣٥) اخبار مجموعة ص ٧ ؛ د . عبدالرحمن علي الحجي ، التاريخ الاندلسي ص ٦٣ .

(٣٦) هناك رواية متهافتة بخصوص ظفر طارق بن زياد بصاحب هذه المدينة يذكرها الرازي فيقول : « ظفر طارق بالعلج صاحبها وكان مغتراً سيىء التدبير فخرج الى النهر لبعض حاجاته فصادف طارقاً وهو لا يعرفه فوثب عليه طارق في الماء فاخذه وجاء به الى المعسكر فلما كاشفه اعترف له بانه امير المدينة فصالحه طارق على ما احب وضرب عليه الجزية وخلى سبيله فوفى بما عاهد عليه (المقري ، المصدر السابق ص ٢٤٤) .

(٣٧) ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٨ .

(٣٨) ابن الكردبوس (نص ابن الشباط) تاريخ الاندلس ص ١٤١ ؛ المقري ، المصدر السابق ص ٢٦٠ .

(٣٩) ولعل اشارة الرازي الى النصح الذي اسداه يوليان الى طارق بن زياد بخصوص تفريق جيشه في جهات البلاد وان يمضي هو الى طليطلة بقوله : « قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء ادلاء من اصحابي منسرة تفرق جيوشك معهم في جهات البلاد واعمد انت الى طليطلة حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر في امرهم والاجتماع الى اولي رايهم » نقول ان هذه الاشارة فيها كثير من التضخيم والمبالغة .

(٤٠) المقري ، المصدر السابق ص ٢٦١ .

(٤١) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٧٧ .

(٤٢) اصبحت هذه الكنيسة فيما بعد جامع قرطبة الكبير .

(٤٣) كما جاء في المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٤ ؛ للاستزادة : انظر د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٨٠–٨٤ ؛ د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٨٤ — ٩٠ ؛ د . عبدالرحمن علي الحجي ، التاريخ الاندلسي ص ٦٤ .

(٤٤) المقري ، المصدر السابق ص ٢٤٤ .

(٤٥) ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١٧ ؛ المقري ، المصدر الساتق ص ٢٤٨ .

(٤٦) ابن حيان في المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ؛ الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ص ١٧٩ .

(٤٧) يقول الدكتور السيد عبدالعزيز سالم ، لعل هذه هي قلعة هنارس التي يسميها ابن عبدالحكم قلعة فراس (تاريخ المسلمين ص ٨٣) فيما يعتقد الدكتور حسين مؤنس ، ان مدينة المائدة

تقع على مقربة من قلعة هنارس استناداً الى سافدرا (فجر الاندلس ص ٧٩) .

(٤٨) ويبدو انها ليست مائدة اصلا لفخامة صناعتها ودقتها ، ولكن يحتمل ان تكون مذبحاً للكنيسة الجامعة في طليطلة ، ولعل عبارة ابن حيان تلقي بعض الضوء على ذلك فيقول : « وهذه المائدة المنوه عنها المنسوبة الى سليمان النبي عليه السلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم وانما أصلها ان العجم في ايام ملكهم كان اهل الحسبة منهم اذا مات احدهم اوصى بمال للكنائس ، فاذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي واشباهها من الذهب والفضة تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الاناجيل اذا برزت المناسك ويضعونها على المذابح في الاعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذه السبيل » .

(٤٩) يتوسع الاستاذ محمد عبدالله عنان في ذكر الروايات العربية حول هذه المائدة فيقول ، ان طارق بن زياد ، انتهى الى مدينة المائدة خلف جبال استورية فاستولى على مائدة سليمان بن داود وهي خضراء من زبرجد حافاتها منها وارجلها ثلثمائة وخمسة وستون ، ويقال ان هذه المائدة غنمها الرومان من المشرق او بيت المقدس في بعض غزواتهم ثم نقلوها الى روما فغنمها القوط حين افتتحوا روما ثم احرزها العرب عند فتح اسبانيا ، ويذكر ابن الاثير ، ان احد ملوك اسبانيا في عهد الوندال غزا بيت المقدس واحرز المائدة وذكر صاحب الروض المعطار وبعض مؤرخي الافرنج ، ان هذه المائدة هي من نفائس ملوك القوط ، وان العرب عثروا بها في كنيسة طليطلة وهي على حد قوله اقرب الى المعقول (دولة الاسلام في الاندلس ص ٥١ هامش رقم (١)) .

(٥٠) يصفها الحميري نقلا عن ابن حيان ويزيد قوله : « وبالغت الاملاك في تحسينها يزيد الآخر منهم فيها على الاول حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات وطار الذكر بها في كل مطار وكانت مصوغة من خالص الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد، لم تر العين مثلها فولع في تحسينها من اهل دار المملكة وانه لا ينبغي ان يكون بموضع آلة جمال او متاع مباهاة الا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة فاصابها المسلمون هناك (الروض المعطار ص ١٣١) ويقول الدكتور

حسين مؤنس ، ان هذه المائدة لا يمكن تصور هيئتها تصوراً صحيحاً ، ثم يورد ما جاء به ابن عبدالحكم وابن عذاري والمقري وصاحب فتح الاندلس حيث يتفقون جميعاً على وصفها اتفاقاً حرفياً فهي عندهم : « كانت من زبرجدة خضراء ، حافاتها وارجلها منها » غير ان صاحب اخبار مجموعة يخالفهم بقوله : «ولها ثلثمائة رجل وخمسة وسبعون رجلا» ويقول : « وعمل لها سفط من خوص فادخلها فيه » (ص ١٧ ، ١٩) .

(٥١) المقري ، المصدر السابق ص ٢٦٥ .

(٥٢) والمصادر التي وردت فيها هذه الرواية هي : ابن عبدالحكم ، فتوح افريقية والاندلس ص ٢٠٧ ؛ اخبار مجموعة ص ١٥ ؛ ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ٩ ؛ ابن حيان (كما جاء في المقري ، المصدر السابق ص ١٢٦) الضبي ، بغية الملتمس في تأريخ الاندلس ص ١١ ؛ الحميدي ، جذوة المقتبس ص ٥ ؛ ابن الاثير ، الكامل جـ ٤ ص ٢١٥ .

(٥٣) محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ص٥١ (استنادا الى ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١٥ ، ١٨) .

(٥٤) عبارة الدكتور حسين مؤنس وخاصة في الجزء الأخير منها اما الفقرة الثانية فتشير الى ان الغنائم التي حصل عليها الجيش قد اثقلت العسكر الى حد عظيم (فجر الاندلس ص ٧٩) .

(٥٥) تاريخ الاندلس (نص ابن الكردبوس) ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٥٦) تزعم بعض المصادر العربية وتردد رواية مفادها ان طارق بن زياد قد استظهر بانتزاع رجل من ارجل المائدة التي غنمها ثم خباها لديه واظهرها للخليفة سليمان بن عبدالملك بعد ذلك ،عندما ادعى موسى ابن نصير انه ظفر بها ليدلل على فتحه البلاد (ابن عبدالحكم ، فتوح افريقيا والاندلس ص ١٠٦ ؛ المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٢) .

(٥٧) تاريخ الاندلس (نص ابن الكردبوس) ص ٤٨ . ويشير اليه كذلك ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا والخبر جـ ٤ ص ٢٥٤ .

(٥٨) فجر الاندلس ص ٨٤ .

(٥٩) ابن حيان كما جاء عند المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٠ .

(٦٠) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٣٥ .

(٦١) ابن عبدالحكم ، فتوح افريقية والاندلس ص ٢١٠ ؛ انظر : د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٨٦ .

(٦٢) للاستزادة من هذا الموضوع انظر : د . حسين مؤنس ، المصدر السابق ص ٨٦ .
(٦٣) اخبار مجموعة ص ١٨ ــ ١٩ .
(٦٤) د . حسين مؤنس ، المصدر السابق ص ٨٦ .
(٦٥) يقول ان طارق بن زياد استجار بمغيث الرومي ووعده بمائة عبد اذا هو ابلغ امره الى الوليد بن عبدالملك ، فقام مغيث بالرسالة وبادر الوليد بالكتابة الى موسى ان يطلق سراح طارق ويتوعده اذا اساء اليه وحمل مغيث هذا الكتاب الى الاندلس فافرج موسى عن طارق ورده الى منصبه (فتوح افريقية والاندلس ص ٢١٠) اما الطبري ، فيشير الى ان طارق بن زياد ترضى موسى بن نصير ، فرضي عنه وقبل منه عذره (تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٩٠) .
(٦٦) وهو ما توصل اليه الدكتور حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٨٧ .
(٦٧) م.ن. ص ٨٧ ــ ٨٨ .
(٦٨) نبذه من اخبار فتح الاندلس (الرسالة الشريفية الى الاقطار الاندلسية) في كتاب تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٩٨ .
(٦٩) كتاب الامامة والسياسة (نص فتح الاندلس) ورد في كتاب ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٤٠ .
(٧٠) وكل ما هنالك ، ان موسى بن نصير عرف ان التوغل الطموح الذي حققه طارق بن زياد في العمق الاندلسي ، لا يتناسب وحجم القوى والوسائط التي كان يتصرف بها فضلا عن تمسك موسى بن نصير بالمبدأ الذي اطلقه الخليفة الوليد القائم على « عدم التغرير بقوة المسلمين » فقرر معالجة الموقف بنفسه بتكوين قوة دعم اضافية للقوى التي كان يقودها طارق بن زياد ، غير ان قوة الدعم هذه احيطت بالكثير من التفسيرات واغلبها بجانب الحقيقة (بسام العسلي ، موسى بن نصير ص ٣٥ــ٣٦) .
(٧١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٥١ ، واورد المقري اشارة مشابهة لابن حيان مما يجعلنا نميل الى الاعتقاد ان المقري نقل عنه في هذا المعنى (المصدر نفسه ص ١٧٠) .
(٧٢) بقوله : « كان مع مغيث العلج ملك قرطبة الذي اصاب بها ، وكان مغيث يدل بمكان ولائه من الخلافة فبعث اليه موسى هات العلج فقال : والله لا تأخذه وانا اقدم به على الخليفة نهجم عليه

فنزعه منه فقيل له : ان سرت به حياً قال مغيث : انا أصيبته ولكن اضرب عنقه ففعل ثم مضى حتى قدم على سليمان وقد مات الوليد » اخبار مجموعة ص ١٩ ـ ٢٠ ؛ وللمقري رواية مشابهة وربما نقلها عنه تقول : ولما قفل موسى بن نصير الى المشرق واصحابه سأل مغيثاً ان يسلم اليه العلج صاحب قرطبة الذي كان في اسره فامتنع عليه وقال : لا يؤديه للخليفة سواي وكان يدل بولائه من الوليد وهجم عليه موسى فانتزعه منه فقيل له : ان سرت به حياً ادعاه مغيث والعلج لا ينكر قوله ولكن اضرب عنقه ففعل فاضطغنها عليه مغيث وصار البا مع طارق الساعي عليه (المصدر السابق ص ١٧٧) .

(٧٣) ابن عبدالحكم ، المصدر السابق ص ٢١٠ ؛ اخبار مجموعة ص ١٩ ؛ ابن عذاري البيان المغرب ص ١٨ .

(٧٤) د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٨٩ .

(٧٥) الرسالة الشريفية في كتاب ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٩٩ .

(٧٦) اخبار مجموعة ص ٨ .

(٧٧) وردت كلمة « تايد » في اخبار مجموعة بدون نقاط ولعلها تايتر ، وهو اسم ذكره « رودريجو الطليطلي » لنهر صغير في هذه المنطقة (د . عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٩٨ هامش رقم (٢) ؛ اما ابن عذاري فيقول ان اكثر الرواة اتفقوا على ان التقاءهما كان على طليطلة (البيان المغرب جـ ٢ ص ١٧) فيما ذكر الطبري « انه كان على قرطبة (تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٨٩) اما الرازي فيؤكد ان طارقاً خرج من طليطلة لما بلغه مسير موسى اليه فلقيه بمقربة من طلبيرة (كما جاء في المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٠) .

(٧٨) انظر الخارطة .

(٧٩) ذكر الرازي كلمة « سيكيو » وهو يتكلم عن المعركة ، ويبدو انه لفظ قريب من لفظ « السواقي » انظر : د . عبدالعزيز سالم ، المصدر السابق ص ٩٩ هامش رقم (١) .

(٨٠) للاستزادة انظر : د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ٩٨ ـ ١٠٠ ؛ د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٩٨ ـ ٩٩ ؛ اما الاستاذ محمد عبدالله عنان فلم يتطرق الى الحديث عن هذه الموقعة وهو على ما يبدو يميل الى الاعتقاد كما يظهر من

خلال عرضه لموقعة وادي لكة بانها هي الموقعـة الحاسمة بـين العرب ، بقيادة طارق بن زياد والقوط يقودهم ملكهم لوذريق (دولة الاسلام في الاندلس ص ٤٩) .

(٨١) حمل اتباع لوذريق رفاته ودفنوها في مدينة « بيزو Viseo وظل قبره معروفا حتى عهد الملك الفونسو العظيم وقد جاء في حولياته انه راى قبر لوذريق وقرا عليه عبارة منقوشة « هنـا يرقد لذريق ملك القوط » وقد دارت حـول مصرعه كثـير من الملاحم الاسـبانية الحديثة (د . السيد عبدالعزيز سـالم ، المصدر السابق ص ٩٩) .

(٨٢) البـيان المغرب جـ ٢ ص ٧ « قتله مروان بن موسى بن نصـير ولم يذكر ذلك سـوى ابن قتيبـة في الاخبـار الطوال (انظـر د . السيد عبدالعزيز سالم ، المصدر السابق ص ٧ هامش رقم (٢) .

(٨٣) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ص ٣٣ ؛ المقري ، المصدر السـابق ص ٢٥٣ ويسمى كذلك « وادي موسى » وهناك واديان يحملان هذا الاسم ، الآخر في جليقية .

(٨٤) البرت او البرتات محرفة عن الاسبانية Puret ومعناها الباب وهي تحتوي على خمسـة ابواب او ممرات للعبور ، لكـن بعض الكتاب والباحثين يسمون جبال البرنيه خطأ بجبال « البرانس » ذلك لان جبال البرنيه تسـمى في الجغرافية العربية جبال البرت او البرتات ، اما جبال البرانس فهي سلسلة اخرى من الجبال الاسـبانية تقع شرقي مدينة ماردة وجنوبي طليطلة وهـي التى تعرف في الجغرافية العربية الحديثة بجبال المعدن وسميت في الجغرافية العربية بجبال البرانس نسبة الى قبيلة البرانـس البربرية التي كانت منازلها في الاندلس على مقربة من هذه الجبال محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ص ٥٢ هامش (٤) ص ٨١ هامش (١) .

(٨٥) كما جاء في المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٨ ؛ وكذلك ابن عذاري ، البيان المغـرب جـ ٢ ص ١٤ ؛ وتشير بعض المصـادر الغربية الى مشروع موسى بن نصير في اختراق اوربا فاتحاً لكي يصل الى بلاد الشام عن طريق القسطنطينية اعتماداً على اشارة ابن خلدون في تجاوزه دروب الاندلس الى الشام والخوض في بلاد الاعاجم « مجاهداً فيهم مستلحماً لهم الى ان يلحق بدار الخلافة »

وكان هذا المشروع يقضي باقتحام جبال البرنيه فتلتقي جحافله في البر بالاساطيل العربية في البحر فيبدأ ـ الدخول الى فرنسا والمانيا وشمال ايطالية فيخترقها الى روما ويتابع سيره الى سهوب الدانوب مثخناً في القبائل الجرمانية التي كانت تسيطر على ضفافه ثم يخترق الامبراطورية البيزنطية فيخضعها للنفوذ العربي ثم يجوز الى آسيا الصغرى في طريقه الى دمشق حاضرة الخلافة الأموية (انظر : محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام ص ٥٣ هامش رقم (٤) .

(٨٦) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٣ .

(٨٧) م.ن. ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٨٨) نقل رواية الغريزي عن مخطوطة الاسكوريال ، سبب استدعاء الخليفة لهما ، فقرة تقول : « .. ولما علم الوليد بن عبدالملك ما حدث لطارق بن زياد وموسى بن نصير من الخلاف بعث فيهما فانصرفا الى المشرق » ويقول ان الغريزي يعتقد ، ان الاوراق التي نقل عنها انما هي من تاريخ الرازي (دولة الاسلام ص ٥٤ هامش رقم (١)) .

(٨٩) تاريخ المسلمين ص ١٠١ ؛ وذكر نقلا عن صاحب الرسالة الشريفية ، انه اتصل بالوليد بن عبدالملك تلوم الامير موسى بن نصير بالمسلمين في الاندلس وتقحمه بهم ارض العدو من غير مؤامرة ، فاقلقه ذلك وبعث مولاه مغيثاً اليه وامره ان يعنفه ويقفله الى افريقية » ص ٢٠٤ . وهذه الرواية خيالية وفيها مبالغة وتمتاز بعدم الدقة .

(٩٠) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٥٨ .

(٩١) فجر الاندلس ص ١٠١ ؛ ثم انظر الهامش رقم (١) في الصفحة نفسها .

(٩٢) المقري ، المصدر السابق ص ٥٣٣ .

(٩٣) البيان المغرب جـ ٢ ص ١٦ .

(٩٤) نفح الطيب جـ ٢ ص ٢٧٣ .

(٩٥) الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ص ٩٦ .

(٩٦) التابعي الجليل ومهندس المساجد الاسلامية في بلاد المغرب خلال مدة الفتح (ابن عذاري ، المصدر السابق ص ٩٦ ؛ الحميري ، المصدر السابق ص ٤ ؛ ٢٩ ، ٩٧ ؛ (نص ابن الشباط في تاريخ الاندلس ص ١٨١) د . عبدالرحمن علي الحجي ،

التاريخ الاندلسي ص ٩١ ؛ د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ١٠٣ ؛ د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٢٦٣ .

(٩٧) بغية الملتمس ص ٢٦٣ .

(٩٨) د . عبدالرحمن علي الحجي ، التاريخ الاندلسي ص ١٠١ .

(٩٩) م.ن. ص ١٠٢ — ١٠٣

(١٠٠) ابن قتيبة الدينوري ، الامامة والسياسة ص ١٣٧ .

(١٠١) د . حسين مؤنس ، المصدر السابق ص ١٠٣ .

(١٠٢) شكيب ارسلان ، الحلل السندسية جـ ٣ ص ٥٠ ، ولعله استند في ذلك الى مصدر آخر لم يذكره (انظر: د. عبدالرحمن علي الحجي ، التاريخ الاندلسي ص ٩٣ هامش رقم (٢) .

(١٠٣) المغرب في حلي المغرب جـ ٢ ص ٤٣٤ .

(١٠٤) العذري ، نصوص عن الاندلس ص ٢٢ (وتغذيه روافد في شمال الاندلس يصب في البحر المتوسط عند طرطوشة ، واشهر المدن التي تقع عليه ، مكناسة ، سرقسطة ، تطيلة ، هارو) .

(١٠٥) شكيب ارسلان ، المصدر السابق جـ ٢ ص ١١٦ .

(١٠٦) تضم اجزاء من المانيا وفرنسا وايطاليا ، وكانت قد انقسمت عقب سقوط الدولة الرومانية المقدسة الى ولايات عدة منها ولاية سبتمانية وعاصمتها « أربونه » ودوقية اكيتانيا وعاصمتها « برديل » واقليم بروفانس ومركزه « ابينيون » واقليم برغنديا وعاصمته « ليون » انظر : د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(١٠٧) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٣٥ .

(١٠٨) يسميها بسام العسلي : « استراتيجية الحرب التشتيتية » التي طبقت لاول مرة بصورتها الواضحة عند فتح بلاد الشام عام ١٣هـ / ٦٣٤م ثم تكرر تطبيقها على مسارح العمليات العسكرية المختلفة ؛ وجاء موسى بن نصير فأعاد تطبيقها باسلوب متطور عام ٩٢هـ / ٧١٢م وبذلك يكون هذا القائد هو باعث لهذه الاستراتيجية في اطار متقدم واسلوب متطور (موسى بن نصير ص ٧٩ — ٨٠) .

(١٠٩) الدخول الى طليطلة وسرقسطة وما حولها من المعاقل والحصون سوية مع طارق بن زياد ودخوله الى وشقة ولاردة

وطركونة وبرشاونة وجيرونة منفرداً ، قاده بنفسه او بواسطة السرايا عبر ممرات منطقة سبتمانيا ووادي نهر دونة والوصول الى قرقشونة واربونة وابنيون ولوذون (ليون) في فرنسا ، وكانت تسلك كما يظهر بموازاة خط سير طارق بن زياد .

(١١٠) بنبلونة والبه وقلاع قشتالة ومنطقة جيليقية ومنها اشترقة ويدخل فيها حصن بارو واشتوريش والصخرة (جيخون) .

(١١١) موسى بن نصير ص ١٢٧ .

(١١٢) بسام العسلي ، المصدر السابق ص ١٣٠ .

(١١٣) اشرنا سابقاً الى ان تعداد جيشه لايتجاوز السبعة آلاف مقاتل وهو عدد متواضع اذا قورن بما حشده القوط الغربيون بعشرات الاضعاف .

الفصل الثامن

العودة للمثول امام الخليفة الاموي في دمشق

واخيراً لم يجد موسى بن نصير بداً من الانصياع الى امر الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك بالتوجه مع طارق بن زياد للمثول امامه ، لاسباب اختلفت حولها المصادر المتوافرة لدينا . لقد خف مبعوث الخليفة ، مغيث الرومي اليهما للمرة الثانية فالتقى بموسى بن نصير في نواحي ليون من بلاد غاله (فرنسا) وهناك ادركهما طارق بن زياد عائداً من اشترقة وساروا جميعاً في طريقهم نحو طليطلة ثم مضوا مجدّين حتى دخلوا قرطبة ولقوا هناك نفراً من كبار الجند ثم مضوا الى اشبيلية وفيها اجرى موسى بن نصير الترتيبات اللازمة لتنظيم حكومة الاندلس ما استطاع الى ذلك وجعل اشبيلية حاضرة البلاد[١] وذلك بسبب موقعها ونشاطها الاقتصادي واتصالها بالبحر ثم اختار ابنه عبدالعزيز لولايتها وجعل معه حبيب بن ابي عبدة بن عقبة بن نافع وزيراً ومعيناً[٢] . وفي ٩٥هـ ركبوا البحر ومعهم يوليان فوصلوا الى مصر ومن ثم بلغوا دمشق قبل ان يتوفى الخليفة الوليد بن عبدالملك بأربعين يوماً[٣] .

وتسهب بعض المصادر في عرض معلومات تكتنفها ملابسات كثيرة عن كيفية وصول موسى بن نصير وطارق بن زياد الى دمشق وموقف الخليفة سليمان بن عبدالملك الذي تولى الخلافة بعد اخيه الوليد منهما ، وكذلك عن النهاية التي انتهى اليها هذان القائدان ، وكيف عُوملا من قبل الخليفة ؟

يشير ابن قتيبة الى ان موسى بن نصير وطارق بن زياد عبرا الزقاق الى بلاد المغرب وهما يحملان معهما الغنائم ويصحبهما عدد من القواد العرب ورؤساء القوط المغلوبين واشراف الناس من قريش والانصار وسائر العرب ومواليهم[٤] وعدد من رجال البربر وملوكهم[٥] . ويذكر المقري ، ان الوليد بن عبدالملك كان مريضاً ، فارسل سليمان بن عبدالملك الى موسى بن نصير يأمره بالإبطاء في المسير مؤملاً ان يموت الوليد قبل قدومه فيتولى سليمان الملك فيقدم عليه في اول خلافته فيعظم بذلك مقامه عند الناس ، غير ان موسى بن نصير كما يزعم هذا المصدر ، ابى ان يفعل ذلك حيث جدّ في السير فوصل دمشق والوليد على قيد الحياة لكن الوليد توفي وافضت الخلافة الى سليمان ، فحقد على موسى وصب عليه جام غضبه[٦] فيما جاء عند صاحب اخبار مجموعة ، ان سليمان بن عبدالملك استخلف اخاه « فابتدره طارق ومغيث يشكوان اليه موسى بأقبح الشكية واعلماه بما صنع بطارق في المائدة وبمغيث في الملك القرطبي »[٧] فانحرف سليمان بن عبدالملك عن موسى بن نصير فعزله عن اعماله واقصاه وحبسه واغرمه غرماً عظيماً[٨] لكننا لا نقر بما جاء في هذا المصدر بصدد معاقبة سليمان بن عبدالملك

لموسى بن نصير وبما يشير الى انه « أنبه بفعلـه بطارق وبمغيث ، وان طارقاً حوّل يده الى قبائه ليخرج احدى ارجل المائـدة التي انكر موسى انه اغتنمها بالقرب من طليطلة فصدق الخليفة طارقاً في كل ما رفع اليه »(٩) كما لا نصدق ابن القوطية في قوله : « فلما صار الأمر الى سليمان ، حبس موسى بن نصير واغرمه »(١٠) .

ولا ريب فقد أخذ بعض المؤرخين هذه الروايات المفرقة وغيرها ووثقوا بها كتاباتهم عن موقف الخلافة من موسى بن نصير من جهة ومن طارق بن زياد ومغيث الرومي من جهة أخـرى ، ولم يكلفوا انفسهم مهمة البحث عن اسباب اكثر وجاهة واقرب الى الحقيقة .

كما جانب الحقيقة استنتاج بعض الباحثين ، من ان موسى بن نصير قد وقع ضحية المؤمرات التي احاطت به والتي كان يقودهـا مولاه طارق بن زياد ، ومن ان طارق بن زياد كان يطمح لولايـة الاندلس وكان يجد في مولاه موسى بن نصير قوة طاغية لا يمكن زحزحتها عن موقعها دون النكاية بها والكيد لها ، والزعم ان مواقف موسى بن نصـير القاسية ، قـد جعلت طـارقاً يحمل الضغينة في نفسه »(١١) ولكن يمكن الى حد ما ، الموافقة على ان ما سببه مغيث الرومي في تشويه سمعة موسى بن نصير امام الخليفة والمسلمين كان له اثر - فهو لم يدخر وسعاً في نشر مقالاته في المشرق حول هـذا القائد حيث لقيت قبولاً عند البعض في عاصمة الخلافة الأموية(١٢) ثم ان توطد العلاقات بين القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد فهما رفاق سلاح (في المغرب او الاندلس) ، لا تسمح للباحث ان يصـدق ما جـاء عنهما وهما في دمشـق ليمثـلا امام الخليفـة

لمعاقبتهما[١٣] . وربما كان الرأي الذي جاء به الدكتور حسين مؤنس وهو ان الخليفة سليمان بن عبدالملك ، أهمل موسى بن نصير وتركه في زوايا النسيان[١٤] له بعض الوجاهة في الظروف التي كانت تجتازها الخلافة الأموية وموقفها من الاقاليم والاقطار التابعة لها والبعيدة مثل المغرب والاندلس ، غير ان الدكتور عبدالرحمن علي الحجي ، يحلل هذا الموضوع تحليلاً مفيداً بدون التوصل الى رأي خاص به معتمداً على ابن الشبّاط[١٥] الذي يسبق ابن خلدون ، (وكان ابن الشباط اعتمد كتاباً مفقوداً في الوقت الحاضر لعله لابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩هـ او غيره) وذلك لبسط سبب استدعاء الخليفة لموسى بن نصير وطارق بن زياد ، على ان ابن الشباط نقل عبارته : « ولما اتصل بالوليد بن عبدالملك تلوم موسى بن نصير بارض الاندلس وتقحمه بالمسلمين في ارض العدو من غير مؤامرة ولا مشاورة بعث مغيثاً مولاه اليه وامره ان يعنفه ويقفله الى افريقية »[١٦] عن ابن الخراط[١٧] .

واذا صح الأفتراض باقفال الخلافة الأموية لموسى بن نصير وطارق ن زياد من بلاد الاندلس الى الشام وبأن الخليفة كان حانقاً عليهما لانه اخذ عليهما بعض الهفوات[١٨] ، وان سليمان بن عبدالملك ، عفا عن موسى بن نصير بعد ذلك[١٩] ثم استبقاه الى جواره ، وكان يخرج معه في نزهاته[٢٠] وانه حج معه الى مكة سنة ٩٧هـ ، حيث توفي هناك[٢١] ، فما هو المصير الذي آل اليه طارق بن زياد !؟ هذا ما تمرّ به الرواية التاريخية بالصمت ، وكل ما هنالك انها تشير الى ما كان من نية سليمان بن عبدالملك في تعيينه والياً

للاندلس مكان موسى بن نصير ، واذا كانت هذه الرواية لا تلقي ضوءاً كافياً على مصير طارق بن زياد فانها قد تسمح لنا مع ذلك ان نعتقد ان طارقاً لم يلق مثل المصير المحزن الذي لقيه موسى بن نصير، وانه بالعكس قد استقبل في بلاط الخليفة استقبالاً حسناً وربما احسن الخليفة فوق ذلك اثابته ، بدليل انه فكر في تعيينه والياً للقطر الذي ساهم في افتتاحه باعظم قسط[٢٢] .

وللاسف فالمصادر المتوفرة لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بن زياد بشيء ، كما انها لا تذكر نهايته ، بل تسدل حجاباً عميقاً من الصمت عليه ويقول الاستاذ محمد عبدالله عنان ، انه لا يعرف المصدر الذي استند عليه السيد آمير علي ، من ان طارق بن زياد لقي المصير التعس نفسه الذي قيل ان موسى بن نصير قد لقيه وانه مات في فقر[٢٣] ، ولا يستبعد الدكتور عبدالرحمن علي الحجي بعد تساؤله عن طارق بن زياد ، هل انه بقي في دمشق ام عاد الى المغرب ثم الاندلس ؟ تقول انه يخلص الى الاستنتاج ، ان هذا القائد قد عاد الى هناك ، ولكنه يستدرك ، ان البحث بانتظار نصوص جديدة تلقي ضوءاً آخر على هذا الموضوع[٢٤] . ولكن على الرغم من هذا الغموض الذي يحيط بسيرته ونهايته ، فانه كان في وسعنا ان نتحدث عن صفاته وخلاله الشخصية والعسكرية الباهرة التي ظهرت بوضوح في معاركه ونشاطاته في بلاد المغرب والاندلس من خلال ما تقدم في هذا الكتاب ، مما يلقي بعض الضوء على حياته وسيرته الذاتية ، فبعد الدراسة المستوعبة والمتأنية لما أتيح لنا الاطلاع عليه من المعلومات القليلة والمشتتة التي استقيناها

الى استنتاجات مفيدة في هذا الصدد ، الأمر الذي يجعلنا نخلص الى القول ، ان صفات طارق بن زياد ، تؤهله حقاً لكي يتبوأ مكانته بين اعظم الفاتحين العرب المسلمين •

واخيرا ، فلا نزاع في ان رحلتنا مع طارق بن زياد في نشأته وظهوره ونشاطه كانت شاقة وعسيرة احياناً ، حيث تجسد فيها بخل المصادر وتعثرها في تقديم المزيد من النصوص والحقائق التاريخية ، كما كانت ثريّة في جوانب اخرى فتحفنا المصادر من ثمارها النادرة عن هذا القائد التاريخي الفذ • ولكن مهما سجل المؤرخون والكتاب في صفحاته من الثناء فانهم يبدون قاصرين عن البيان في توضيح سر هذا القائد العربي الاسلامي المجيد وامتيازه ، فقد ترك اعظم مأثرة رائدة في تاريخ العرب ، هي فتح الاندلس ونشر السيادة العربية الاسلامية فيها ، كما حملت اسمه اول بقعة من ارضها وطئتها قدماه ؛ واصبحت « جبل طارق » او « جبرالتار » على مرّ العصور ، موضوعاً يتحدث عنه الناس بفخر حتى الوقت الحاضر ، حيث كانت ذكرى هذه المأثرة وما زالت تدفعهم الى البحث والاستقصاء عن حياته واخباره ، لكي ترسم عنه صورة القائد التاريخي والسياسي المحنك ، صاحب القدرة والكياسة الجديرتين بالاعجاب ، لقد أرسى اولى دعائم للفكر العسكري واستنهض هذه البلاد لتحقيق اهدافه في خطط وموضوعات سديدة في هذه البلاد التي قدر لها ان تكون نبتاً من منابت الفكر الأصيل وان تلعب دورها التاريخي في الحضارة العربية الاسلامية وتترك تأثيراتها في الحضارة الانسانية عن طريق اوربا التي وصلتها طلائع الرايات العربية ، يحمل مقدماتها طارق بن زياد وصفوة القادة العرب الآخرين •

هوامش الفصل الثامن :

(١) ابن القوطية القرطبي ص ٣٦ ؛ اخبار مجموعة ص ١٩ .
(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب جـ ٢ ص ٣٠ ؛ د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ١٠٦ .
(٣) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة جـ ٢ ص ١٥٨ .
(٤) منهم عياض بن عقبة وابي عبيدة وعبدالجبار بن ابي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف والمغيرة بن ابي بردة وزرعة بن ابي مدرك وسليمان بن بحر (كتاب الامامة والسياسة ص ١٤١) .
(٥) وبينهم ابناء كسيلة بن لمزم وملك السوس الأقصى وملك قلعة اوساف وملك ميورقه ومنورقه (م.ن. ص ١٤١ ــ ١٤٣) د . حسين مؤنس فجر الاندلس ص ١٠٧ .
(٦) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٢ ؛ وللاستزادة انظر د . حسين مؤنس المصدر السابق ص ١٠٧ ؛ د . السيد عبدالعزيز سالم ، المصدر السابق ص ١٠٦ .
(٧) اخبار مجموعة ص٢٩ ، وكذلك المقري، المصدر السابق ص٢٦٢
(٨) اخبار مجموعة ص ٣٠ .
(٩) م.ن. ص ٣٠ .
(١٠) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٣٦ .
(١١) بسام العسلي ، موسى بن نصير ص ١٤٩ ــ ١٥٠ ؛ محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ص ٥٧ .
(١٢) ربما كان مغيث الرومي قد شكا موسى بن نصير الى الخليفة الوليد بن عبدالملك او الى اخيه سليمان بسبب طموح الاول لتولي الاندلس او العودة اليها في الاقل ، وبسبب ما ذكرته المصادر حول تازم العلاقات مع موسى بن نصير اثناء افتتاح شمال الاندلس (المقري ، نفح الطيب جـ ٢ ص ١١ ، ثم انظر : د . السيد عبدالعزيز سالم، المصدر السابق ص ١٠٧ ــ ١٠٨) .
(١٣) حتى قيل ، ان سليمان بن عبدالملك كان يقيم موسى بن نصير في الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد او انه الزمه ان يطوف بالقبائل محروساً يستجديها مالا يفتدي به نفسه

حتى لقد كان يستجدي الدرهم والدرهمين فيفرح بذلك ليدفعه الى الموكلين به فيخففون عنه من العذاب » د . حسين مؤنس ، فجر الاندلس ص ١٠٨ وذلك نقلا عن المقري ، المصدر السابق ص ١٨٠ .

اما بخصوص طارق بن زياد فلم يذكر ما يشير الى اتخاذ عقوبة ما او اي اجراء آخر ضده .

(١٤) د . حسين مؤنس ، المصدر السابق ص ١٠٨ .

(١٥) تاريخ الاندلس (نص ابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط ، ت ٦٨١هـ) وهو كتاب الاكتفاء في اخبار الخلفاء لابي مروان عبدالملك ابن الكردبوس التوزري بعد سنة ٥٧٣هـ (تحقيق د . احمد مختار العبادي ، مدريد ــ ١٩٧١) .

(١٦) التاريخ الاندلسي ص ١١٤ نقلا عن تاريخ الاندلس ص ١٥١ (نص ابن الشباط) .

(١٧) ابو محمد بن الخراط (ت ٥٨١هـ) اختصار اقتباس الانوار والتماس الازهار في اسماء الصحابة ورواة الآثار .

(١٨) وربما بلغه سعي موسى بمعاونة طارق بن زياد الى فصل المغرب والاندلس عن الخلافة كما تزعم بعض المصادر ، وذلك بعد ان ولى موسى بن نصير اولاده الثلاثة عليهما وضرب عملة باسمه ، ذهبية واخرى برونزية لصرف رواتب الجند وذلك في دار السكة القوطية بطليطلة ، وهذه النقود كانت تحمل نقوشاً كتابية لاتينية على غرار العملات السابقة على الاسلام في اسبانيا والمغرب وكتابات عربية في آن واحد وكانت العملات البرنزية تحمل اسم موسى وصورة وجهين والذهبية كتابات لاتينية وصورة تمثل سمكة ، وكان وزن الدينار الذي ضربه موسى يقرب من (٤) غرامات وتدور حول محيطه عبارة (ضرب في اسبانيا عام ٩٣هـ) وتوسط ظهر الدينار نجمة من ثمانية رؤوس ، وتدور حول محيطه عبارة « الله واحد والله عالم ليس له كفء » وهناك دنانير عليها نقوش كتابية عربية ولاتينية في وسطها عبارة (محمد رسول الله) » د . السيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ٩٩ هامش رقم (٤) » .

(١٩) رواية ابن عبدالحكم ، فتوح مصر ص ٢١٣ ؛ البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٣٠ .

(٢٠) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ص ١٧٨ .
(٢١) م.ن. ص ١٨٤ .
(٢٢) المقري ، نفح الطيب جـ ٣ ص ، محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ص ٥٩ .
(٢٣) محمد عبدالله عنان ، المصدر نفسه ص ٥٩ هامش رقم (٢) .
(٢٤) التاريخ الاندلسي ص ١٢٨ .

المصادر والمراجع

١ - المصادر العربية :

ابن الأثير ، عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) .
(١) اسد الغابة في معرفة الصحابة (القاهرة - ١٢٨٠هـ) .
(٢) الكامل في التاريخ (القاهرة - ١٩٤٩) .
الادريسي ، الشريف ابو عبدالله (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م) .
(٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (القسم الاوربي ، روما - ١٥٩٢) .
الدكتور احمد مختار العبادي
(٤) دراسات في تاريخ المغرب والاندلس (دار النهضة العربية بيروت - ١٩٧٨) .
الدكتور احمد هيكل
(٥) الأدب الاندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة (الطبعة الثالثة مصر - ١٩٦٧) .
بسام العسلي
(٦) موسى بن نصير (دار النفائس ، بيروت (ط ٢ - ١٩٧٨)
البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م)
(٧) فتوح البلدان (تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة - ١٩٥٦)
البكري ، ابو عبيد (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) .
(٨) المغرب في اخبار الاندلس والمغرب (الجزائر - ١٨٥٧م) .

الدكتور حسين مؤنس :
(٩) فجر الاندلس (ط ١ ، القاهرة ـ ١٩٥٩) .
ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) .
(١٠) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة (اربعة اقسام) مجلدان منشوران (القسم الاول) الثاني مخطوطة ، الثالث خطية والرابع (مجلدان منشوران) .
ابن حيان ، ابو مروان بن خلف (ت ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) :
(١١) كما جاء في المقري ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب .
ابن حزم الاندلسي ، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) :
(١٢) جمهرة انساب العرب (تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، القاهرة ـ ١٩٦٤) .
الحميري ، ابو عبدالله محمد بن عبدالمنعم الصنهاجي (ت نحو ٧١٠هـ / ١٣١٠م) :
(١٣) الروض المعطار في خبر الاقطار (فتوح افريقيا والاندلس) من كتاب وصف جزيرة الاندلس (تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ـ ١٩٣٧) .
الحميدي ، ابو عبدالله محمد بن ابي نصر فتوح بن عبدالله الازدي (ت ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) :
(١٤) جلوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس (القاهرة ـ ١٩٦٦) .
ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد المغربي (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) :
(١٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر (منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ـ ١٩٦٨) .
ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) :
(١٦) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان (ط١ ، القاهرة ـ ١٩٤٨)
ابن الخراط ، ابو محمد (ت ٥٨١هـ / ١١٨٥م) :
(١٧) اختصار اقتباس الانوار والتماس الازهار في اسماء الصحابة ورواة الآثار .
الرازي ، ابو بكر احمد بن محمد (ت ٣٤٤هـ / ٩٥٥م) :
(١٨) كما جاء في المقري ، نفح الطيب .
ابن الشباط ، محمد بن علي بن محمد المصري التوزري (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) :
(١٩) نص ابن الشباط لابن الكردبوس ووصفه ، وهما نصان

جديدان جاء ذكرهما عند الدكتور عبدالرحمن علي الحجي (التاريخ الاندلسي (ط ١ ـ ١٩٧٦) .
شكيب ارسلان :
(٢٠) الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية (فاس ـ ١٩٣٦) .
ابن قتيبة الدينوري ، ابو محمد عبدالله بن مسلم :
(٢١) الامامة والسياسة (كما جاء في كتاب ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الاندلس (بيروت ـ ١٩٥٧) .
ابن الكردبوس ، ابو مروان عبدالملك التوزري التونسي (ت بعد ٥٧٣هـ / ١١٧٧م) :
(٢٢) الاكتفاء في اخبار الخلفاء (تحقيق د . احمد مختار العبادي ، مدريد ـ ١٩٧١) .
الدكتور سعد زغلول عبدالحميد :
(٢٣) تاريخ المغرب العربي (دار المعارف ـ مصر) .
الدكتور السيد عبدالعزيز سالم :
(٢٤) تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (بيروت ، دار النهضة العربية ـ ١٩٨١) .
(٢٥) المغرب الكبير جـ ٢ (الدار القومية للطباعة والنشر ـ ١٩٦٦) .
(٢٦) بحثه « طارق بن زياد » دائرة معارف الشعب ، العدد ٦٧ مجلد ٢٠ ، مصر ـ ١٩٥٩) .
الضبي ، احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) .
(٢٧) بغية الملتمس في تاريخ حال اهل الاندلس (القاهرة ـ ١٩٦٧).
الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) :
(٢٨) تاريخ الرسل والملوك (تحقيق دي غويه ، بريل ، ليدن ـ ١٩٦٤) .
ليفي بروفنسال :
(٢٩) نص جديد عن فتح العرب للمغرب (ترجمة د . حسين مؤنس ، نشر في صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد مجلد ٢ ـ ١٩٥٤) .
ابن عبدالحكم ، عبدالرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧هـ / ٨٧٠م) :
(٣٠) فتوح مصر والمغرب والاندلس (تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ـ ١٩٦١) .

الدكتور عبدالرحمن علي الحجي :
(٣١) التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (ط ١ ، دار القلم ، دمشق ــ الرياض ــ ١٩٧٦) .
ابن عذاري ، ابو عبدالله محمد المراكشي (ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) :
(٣٢) البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب (تحقيق ج . س كولان طبعة بيروت ــ بدون تاريخ) .
عبدالملك بن حبيب :
(٣٣) نص ابن حبيب ، نشره د . عبدالرحمن الحجي ، في كتابه التاريخ الاندلسي نقلا عن مجلة معهد المخطوطات الاسلامية في مدريد (القسم الفرنجي) .
العذري ، ابو العباس احمد بن انس الدلائي (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م)
(٣٤) نصوص عن الاندلس (وهو قطعة من ترصيع الاخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك الى جميع الممالك (تحقيق الدكتور عبدالعزيز الاهواني، مدريد ــ ١٩٦٥) .
ابن القوطية القرطبي ، ابو بكر محمد (ت ٣٦٧هـ / ١٩٧٧م) :
(٣٥) تاريخ افتتاح الاندلس (تحقيق عبدالله انيس الطباع ، بيروت ــ ١٩٥٧) .
علي بن عبدالرحمن بن هذيل من القرن الثامن ــ القرن التاسع الهجري
(٣٦) تحفة الانفس وشعار اهل الاندلس (مخطوط بالاسكوريال اشار اليه محمد عبدالله عنان ، نشرها مصورة لويس مرسيه (باريس ــ ١٩٣٢) .
الفــــريزي :
(٣٧) مخطوطة الاسكوريال وهي منقولة من تاريخ الرازي ، ذكرها محمد عبدالله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس (القاهرة ــ ١٩٦٩) .
(٣٨) اخبار مجموعة في فتح الاندلس (مجريط ــ ١٨٦٧) (تحقيق لافونتي الكانترا) .
محمد عبدالله عنان :
(٣٩) دولة الاسلام في الاندلس (القاهرة ــ ١٩٦٩) .
محمد امين السويدي :
(٤٠) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب (المكتبة التجارية الكبرى ، مصر) .

الدكتور محمود علي مكي :
(٤١) نص عبدالملك بن حبيب ، نشره في مجلة الدراسات الاسلامية في مدريد .
المقري ، شهاب الدين بن محمد التلمساني (ت ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م) :
(٤٢) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (ط ١ ، القاهرة ، مطبعة السعادة ــ ١٩٤٩) .
(٤٣) نبذة من اخبار فتح الاندلس (الرسالة الشريفية الى الاقطار الاندلسية) منشور في كتاب ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الاندلس .

٢ ــ المصادر الاجنبية :

1. Saavedra (Eduardo). Estu dio Sobre la Inasion de los Arabes en Espana (Madrid-1892).
2. Leve-Provecal. Histoire del Espange Musulmane (Leiden. 1950).

الفهرست

الاهـــداء	٤
مقدمة المؤلف	٥
طارق بن زياد	١١
مقدمـــة	
الفصل الاول	١٧
طارق بن زياد ، نشأته ، نسبه، ظهوره	
الفصل الثاني	٣١
طارق بن زياد يهيء للعبور	
الفصل الثالث	٦١
طارق بن زياد قائدا عسكريا	
الفصل الرابع	٧١
خطط طارق بن زياد العسكرية	
الفصل الخامس	٨٣
الخطبة المنسوبة الى طارق بن زياد	
الفصل السادس	٩١
واقعة حرق السفن المنسوبة الى طارق بن زياد	
الفصل السابع	٩٧
العمليات العسكرية ووقائع الفتح	
الفصل الثامن	١٣٨
العودة للمثول امام الخليفة الاموي في دمشق	
المصادر والمراجع	١٤٦